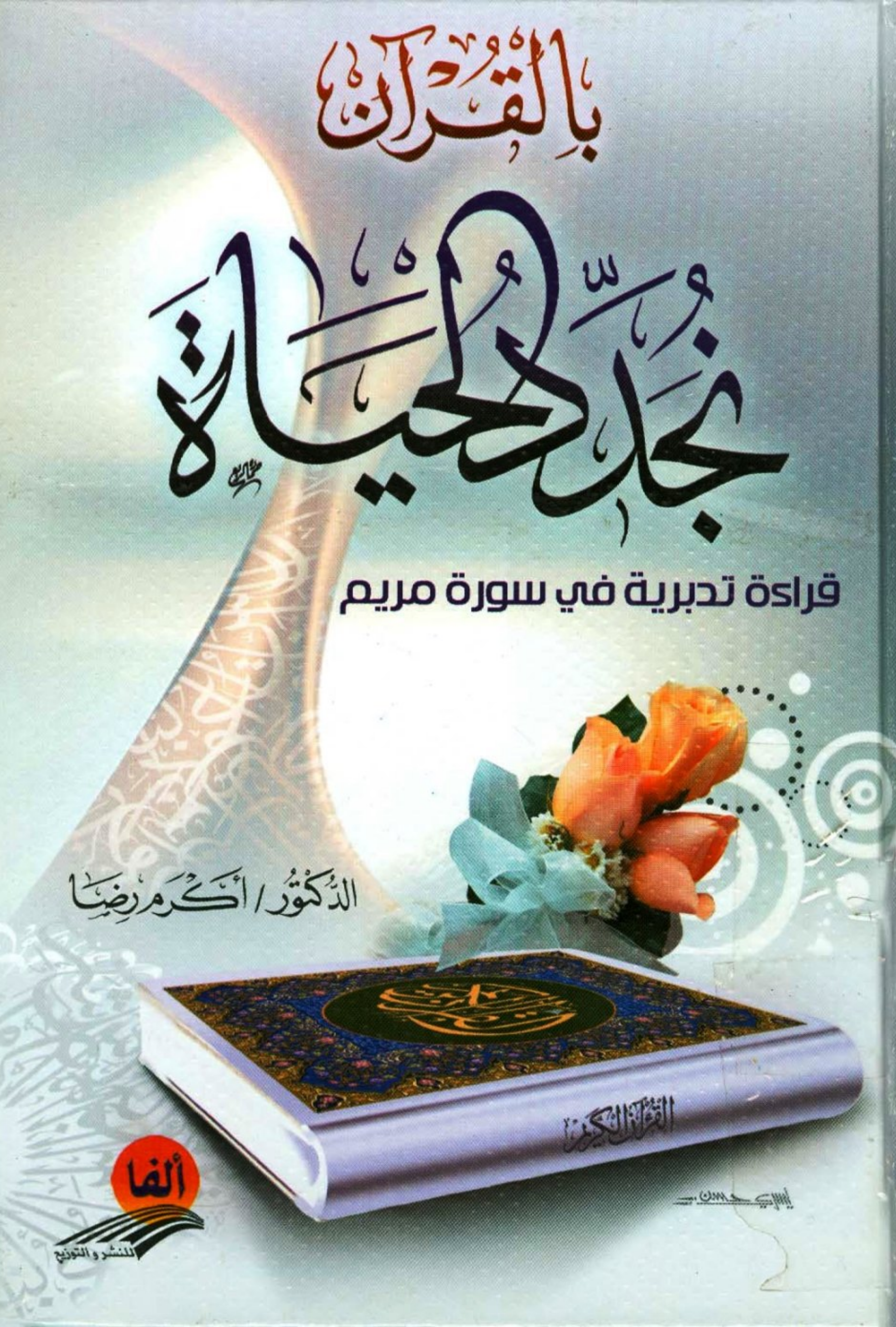
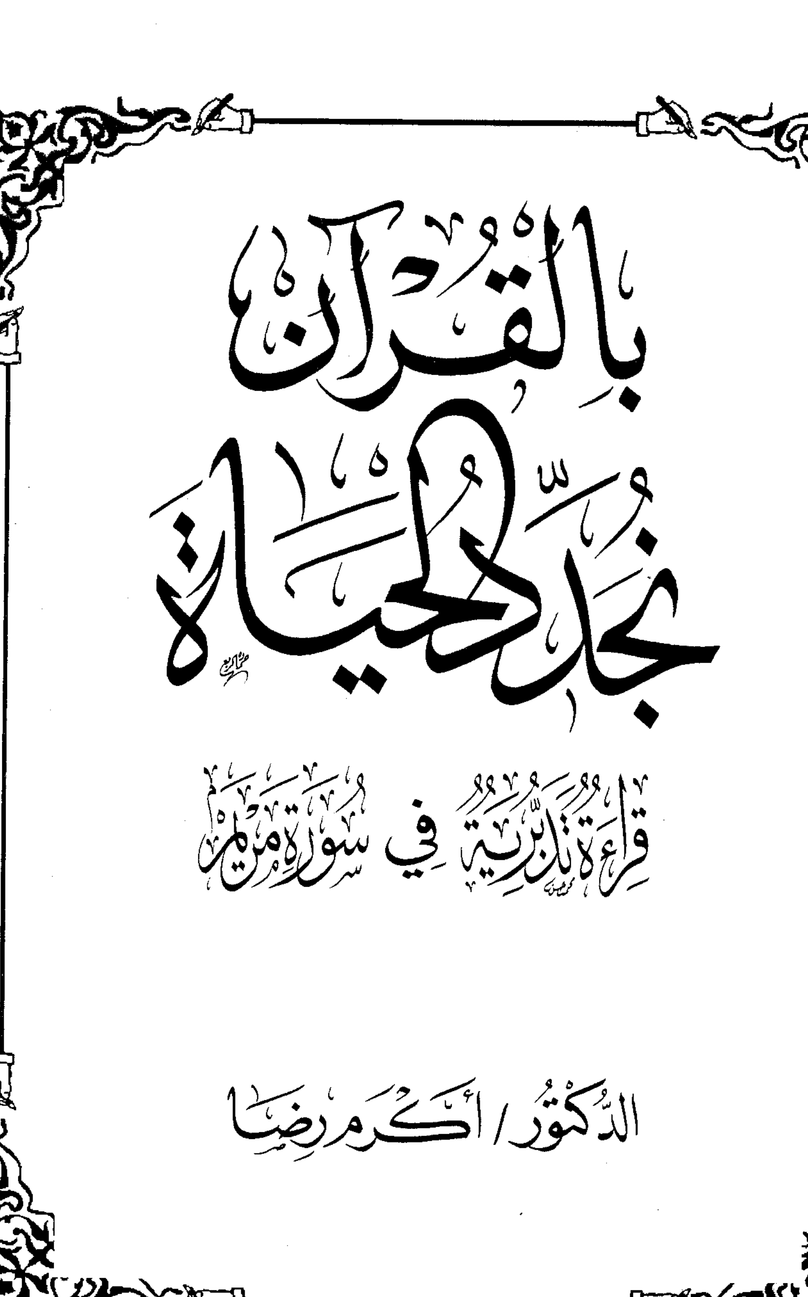

بالقرآن
نجد الحياة
قراءة تدبرية في سورة مريم
الدكتور/ أكرم رضا
القرآن الكريم
ألفا
للنشر والتوزيع


بالقرآن نجد الحياة
قراءة تدبرية في سورة مريم
الدكتور / أكرم رضا


بالقرآن نجد الحياة

جميع حقوق الملكية الأدبية
والفنية محفوظة لشركة
ألفا للنشر والإنتاج الفني

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو
إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو مجزءًا،
أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو
إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على
أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر
الخطية الموثقة

ألفا للنشر والإنتاج الفني

حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم المؤلف: د/ أكرم رضـــــا

الناشر

شركة ألفا للنشر والإنتاج الفني

٥٨ ش صلاح ناصف – الهرم

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

رقم الأيداع:١٦٠١٦/ ٢٠٠٨م

الإخراج الفني والمراجعة اللغوية

شركة ألفـــا للنشر والإنتاج الفني



ت وفاكس: 0020233888593
موبايـــل: 0020101099805
Email:alfa_eg@yahoo.com
info@alfa-publishing.com
www.alfa-publishing.com



إهداء

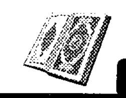
إلى

[الصديقة حبيبة المؤمنين الطاهرة العذراء
سيدة نساء العالمين أم عيسى عليهما السلام

إلى

مريم ابنة عمران

هذه شهادة براءتها من السماء]



﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].



مُقَدِّمَة

يتدبرون القرآن

لم تذكر قراءة القرآن هكذا كأمر مجرد في كتاب الله ولكن اقترنت تلك القراءه دائمًا بحال...

مثل التلاوة والترتيل والتفكر والتعقل والفقه.. والتذكر ...

ومن أهم الأحوال التي قرن بها الأمر بقراءة القرآن...

التدبر .. فما أنزل كالكتاب إلا ليدبروا آياته كما قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

بل ويعاتب الله على عدم التدبر؛ بل ويسوق المعاير التي يمكن التدبر من خلالها.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فقد يكون التدبر لاكتشاف الاختلاف فإذا لم يجدوا ذلك الاختلاف فهو دليل على أن منزله سبحانه هو الحق، لأن الاختلاف والتخطيط من طبيعة البشر.

وكذلك يشتد اللوم حتى يصبح عدم تدبر القرآن دليلاً على إقفال القلوب وعدم قدرتها على استقبال النور...



﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وهكذا يصل بنا القرآن باستدامة التدبر فيه إلى عقد مقارنة سريعة بما عندنا وما توارثناه عن آبائنا من الحق.. فلن نجد في الحقائق الأساسية والقواعد العامه أي اختلاف ويبقى الإيمان لتضبط حياتنا على هذا المنهج القويم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

والآية الأخير موحهة إلى المشركين بمكه، وهي تشبه قول الله تعالى لهم أيضًا ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] فهم يعرفون رسولهم وعاشوا معه وخبروا صدقه وأمانته وكل ما يمتلك من مؤهلات؛ ليكون نبيًا... ثم بعد ذلك مالهم ينكرون كذلك القرآن لقد تدبروة بما عندهم من بلاغة وفصاحة... فالصعب بعد ذالك ألا يؤمنوا به.

والتدبر هو التفكر[(١)] في أبسط معانيه ولكن التدبر يحمل معنى عاقبه التفكر .. فالتدبر هو التفكر في العاقبه والتخطيط لها ومعرفة كيفية التعامل معها.

ويحتاج التعامل مع القرآن إلى حكم ودراية وعلم وتروٍ، ولذلك نجد مثل الموقف التالي لرسول الله ﷺ.

(١) راجع الأشباه والنظائر للوسعاني ١/ ٣٢١ .

روى الإمام أحمد أن مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ ذكروا آيه من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «**مهلًا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**».

ويلخص الحسن البصري علاقة المسلم مع التدبر للقرآن يقول: والله ما تدبره بحفظ حروفه وإطاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل(١).

وبعد،،،

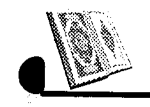
فهذه قراءة تدبرية في القرآن الكريم أقوم بها بصفتي مسلمًا مأمورًا أن أقرأ القرآن بتدبر...

وإني لأضمها لكتبي الموجهه إلى الشباب على طريقة إدارة الذات كنموذج.

من نماذج التعامل مع الدستور الإلهي الذي أمرنا أن نسترشد به ونقيم عليه حياتنا..

---

(١) ذكره ابن كثير ج٧ ص٣٩ .



وهي قراءه كما أكرر أكثر من مرة وليست تفسيرًا أو تأويلًا للقرآن فإني لست من أهله ومعنى أنه قراءة أنها عمل بشري يتصف بما يتصف به البشر من الضعف والتقصير والقصور تصنف إلى ذلك حال صاحبها الذي لا يعلمه إلا الله.. فتكون النتيجة هي ملاحقتي المستمره لكل كلمه من هذا الكتاب بالاستغفار.

ورجائي لكل قارئ وقارئه أن يوافيني بأي ملاحظه يراها سواء بالتأييد أو الاعتراض فإن قراءة القرآن تحتاج التصحيح المستمر فما بالكم بالقراءة التدبرية.

وليكن رجائي من الله أن يغفر لي زلاتي بنيتي أن أرفع ذلك اللواء الذي أراده الله لنا مرفوعًا وهو لواء وبالقرآن نجدد الحياة.

فهل سيكون هناك ملفات تدبرية أخرى للقرآن الكريم تتبع هذه السلسلة؟

أرجو أن يوفقني الله لذلك.

والآن أترككم مع السورة والشخصية المحورية «**مريم أم عيسى**» والقرآن... والتدبر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د. أكرم رضا

akramreda@yahoo.com





سورة مريم سورة مكية.. نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه.. وهي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب النزول.. وموضعها في ترتيب القرآن بعد سورة الكهف وقبل سورة طه(١).

يقول السيوطي عن مناسبة ترتيبها في المصحف بعد سورة الكهف: إن أهل الكهف من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة بين عيسى ومبعث محمد ﷺ فناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم.. كما أن سورة الكهف اشتملت على أعاجيب طول مكوث أهل الكهف، وقصة موسى والعبد الصالح (الخضر)، وقصة ذي القرنين. وهذه السورة (مريم) فيها أعجوبتان: قصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى؛ فناسب تتاليهما(٢).

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٧)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

(٢) راجع أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي ١٣.



الحروف المقطعة:

العلماء فيها على رأيين:

أولاً: أنها من المتشابه:

وقد استأثر الله بعلمها فردُّوا علمها إلى الله.

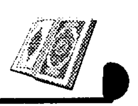
يقول ابن كثير: (لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى.

ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبُّد لا معنى له بالكلية. فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعيَّن أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين)[١].

وبالبحث لم نجد أي حديث صحيح عن النبي ﷺ حول هذه الحروف في أوائل السور مع العلم أنها وردت في أوائل ٢٩ سورة من مجموع ١١٤ سورة أي: حوالي ربع سور القرآن، إلا ما ورد عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ**

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٧٦، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الإيمان- المنصورة ١٩٩٦م.



وَمِيمٌ حَرْفٌ»[١].

ولا يشير هذا الحديث إلى أي تفسير لها كما هو واضح.

وقد أورد ابن كثير حديثًا وضح على أسلوبه أنه من الإسرائيليات أن هذه الحروف تبين عمر النبي وعمر أمته[٢]...

وأمر هام آخر أنه لم يَرِدْ أن أيًا من مشركي مكة قد طعن في هذه الحروف أو علَّق عليها، وهم مَن هم في البلاغة.

فهل فهموا معناها من خلال ملكتهم اللغوية؟ أم أن هذا كان أسلوبًا من أساليبهم اللغوية فلم يستغربوه أو يسألوا عنه؟

يقول الشيخ الشعراوي حول عدم تفسيرها:

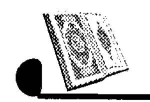
١- نفهم الحروف على قدر مراد الله فيها لا على قدر قدراتنا، فكل إنسان لديه قدرات ومفاتيح للفهم ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

٢- عدم فهم الإنسان لمعنًى لا ينفي انتفاعه به، فمثلًا: الريفي لا يفهم الكهرباء، ولكن ينتفع بها.

---

(١) رواه الترمذي ح (٢٩١٠) وقال الألباني صحيح .

(٢) وقال ابن كثير: هذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي.. وهو ممن لا يُحْتَجُّ بما انفرد به، أي: أن الحديث ضعيف جدًا... راجع تفسير ابن كثير ١/٧٧ .



٣- كلمة السرِّ في الجيش أحيانًا لا يكون لها معنًى، ولكنها تعني حياة أو موتًا، نصرًا أو هزيمة، وكان شعار الرسول في أَحَدِ غزواته: «**حم لَا يُنْصَرُونَ**»(١).

٤- هي مما تركه الله لنا لنتفكر فيه ونجول فيه بخواطرنا فلم يرد نهي عن التفكير فيها فأي اجتهاد حولها مقبول ما دام لا يخرج عن القواعد العامة للإسلام(٢).

هي للتحدي:

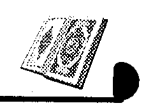
فنجد ابن كثير يعرض عدة تفسيرات للعلماء حول هذه الحروف المقطعة ثم يردها ويضعفها، ويختار رأيًا اتفق فيه مع الرازي وابن تيمية:

أن هذه هي الحروف التي هي أدوات الكتابة، وهذه الكلمات مكونة منها، فهل يمكن أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن من مثل هذه الحروف؟

١- فيتحدى بأن يأتوا بشيء بحديث أي حديث يشبهه ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟

(١) في غزوة الخندق ويوم قريظه وكان شعاره يوم بدر (أحد أحد) راجع سيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٣، ٢/ ٢٧٥ تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٢) راجع تفسير الشعراوي جـ ١/ ٥٠، أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١م.



صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

٢- ثم يزداد التحدي بأن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

٣- ثم سورة واحدة أي سورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ثم يعلن عجزهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

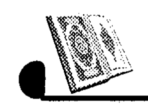
ونلاحظ أن أي سورة بدأت بهذه الحروف لا بد أن يُذْكَر فيها القرآن وإعجازه أو شيءٌ حوله، ومثال ذلك:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [البقرة: ١، ٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١- ٣].

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١- ٢].

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].



﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ونترك لك المجال لتفتح المصحف وتختبر هذه الملاحظة من خلال الجدول الاحصائي التالي لورود الأحرف المقطعة في أوائل سور القرآن.

الأحرف	عدد السور	أسمـاؤهـا
الم	٦	البقرة - آل عمران - العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة
المص	١	الأعراف
الر	٥	يونس- هود - يوسف - إبراهيم - الحجر
المر	١	الرعد
كهيعص	١	مريم
طه	١	طه
طسم	٢	الشعراء- القصص
طس	١	النمل
يس	١	يس
ص	١	ص
حم	٧	غافر- فصلت- الشورى- الزخرف- الدخان- الجاثية- الأحقاف
ق	١	ق
ن	١	ن
المجموع	٢٩	

نص حكيم:

وقد جمع ابن كثير هذه الحروف وحذف المتشابه منها فكانت ١٤ حرفًا . . . واستطاع أن يُكَوِّن منها جملة مفيدة وهي: «نص حكيم قاطع له سر».

وقال الشيخ حسن البنا في تفسير «مقاصد القرآن»: وهذا رأي. . . وليس له دليل ولا سند(١).

ويقول البنا عن هذه الأحرف: (كثرت فيها أقوال المفسرين، وأحقها بالنظر والتقدير آراءٌ ثلاثة:

١- أنها للفت النظر للاستماع للقرآن حين يُتلى. . فهي أداة تنبيه وخاصة للمشركين.

٢- أنها إشارة إلى الإعجاز. . فهذا الكتاب مركب من هذه الأحرف، وأنتم تعجزون أن تأتوا بمثله.

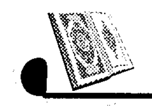
٣- أنها إشارة إلى فضيل الكتابة وسمو منزلتها والاحتفاء بحروفها.

وكل ما عدا هذه الآراء الثلاثة من أقوال المفسرين ظن لا يُغني من الحق شيئًا)(٢).

---

(١) مقاصد القرآن، حسن البنا، ص٨٣، دار الوثيقة، الكويت، ٢٠٠٤ .

(٢) المرجع السابق ص (٨٢، ٨٣) مختصرًا .



وحول هذا المعنى يقول سيد قطب:

(والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعًا...

هذه التربة مؤلفة من ذرات... فإذا صنعها الإنسان كانت تمثالًا أو جهازًا أو بناءً أو هيكلًا..

ولكن يجعل الله منها حياة نابضة خافقة تطوى على ذلك السر الإلهي المعجز «سر الحياة».

وهكذا القرآن حروفه وكلامه يصوغ منها البشر كلامًا.. شعرًا ونثرًا.. ويجعل الله منها قرآنًا.. فرقانًا.

والفرق بين صنع الله وصنع البشر هو الفرق بين الجسد الخامد والروح النابض)(١).

النبي الأمي:

ويقول الشيخ الشعراوي:

إن أي أحد يستطيع أن يقول: كتاب أو كوب. ولكن لا يستطيع أن يقول: كوب - كاف، واو، باء إلا المتعلِّم، والرسول ﷺ كان أُمِّيًا فمَنْ علَّمه أن يقول أ. ل. م وليس (أَلَمْ).

نجد في سورة البقرة (ألم) وتُقْرَأُ ألف لام ميم. وفي سورتى

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/٣٨، دار الشروق، القاهرة، ط ٩، ١٩٨٠م.



الانشراح والفيل (أَلَمْ) وتقرأ أَلَمْ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فمَنْ علَّم الرسول ﷺ ذلك؟! ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

ونتعلم من هذا أيضًا أن القرآن سماعي لا تستطيع أن تقرأه إلا إذا جلست إلى عالم يُعلِّمك ولذلك يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨][(١)].

المتشـــابـــه:

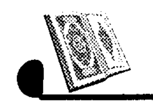
والقاعدة في التعامل مع مثل هذه الآراء في المتشابه من القرآن:

١- النية الحسنة... وعدم استخدام المتشابه استخدامًا خبيثًا مثل استخدام البعض لها كرموز عند الذكر أو في التفسيرات الباطنية للقرآن أو في معرفة الغيب مما يدخل في الدجل وغيرها.

٢- عدم إلزام الناس بما يصل إليه من نتائج فهي آراء قابلة للرفض والقبول.

٣- عدم الادعاء أن هذا هو التفسير ولا غيره، أو أن هذا مراد الله.

(١) تفسير الشعراوي، ١١٣/ ص ٩٠١٨ .



فلا يعلم مراد الله إلا الله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ال عمران: ٧].





٢

محاور السورة

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]

نجد السورة بدأت بعد هذه الحروف بقوله تعالى:

﴿ذِكۡرُ﴾

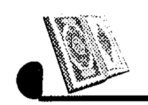
أي: من هذه الحروف سنسرد عليك: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

وهذه بداية لذكر رحمة ربك بالعديد من الأنبياء(١).. الذين كان حالهم عند سماع هذا الذكر كما وصفهم الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

---

(١) ذكر في سورة مريم ثلاث عشر نبي [زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، وإسرائيل (يعقوب)، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح] عليهم جميعًا السلام وهي بكاملها خطاب لخاتم الأنبياء محمد ﷺ.



ولا يخفى على أحد تلك المقارنة التي ستعقد بين موقف هؤلاء الأنبياء من الذكر وموقف الكافرين من الذكر:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وفي نهاية السورة يبين أنه سبحانه يسر هذا الذكر على لسان محمد ﷺ بشيرًا ونذيرًا:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ [مريم: ٩٧، ٩٨].

وبين التعامل مع المتقين -أتباع المؤمنين- والتعامل مع الكافرين - القوم اللد - يعرض الله في القرآن- لحال الفريقين بكلام هو من جنس تلك الحروف:

كاف - هـ - يَ - عَيْن - صاد

فهل تستطيعون أن تأتوا بمثله؟



وما زال التحدي قائمًا . . .

إســم الســــورة:

ومريم هي بنت عمران من نسل سليمان بن داود عليهما السلام.

وزوجته حنة بنت فاقود كانت لا تلد، وقيل: لم تكن لديها ذكور، وكان عمران إمامهم . . .

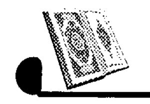
وشاء الله أن تحمل حنة فدعت الله أن يهبها ولدًا ونذرت أن تهبه لخدمة البيت المقدس بعد أبيه عمران الذي مات أثناء حملها..

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وواضح هنا إصرارها على نذرها حيث مريم في لغتهم بمعنى العابدة.

وكفَّل اللهُ مريم زكريا، وهو زوج خالتها وفي رواية أنه زوج أختها، وكان رأس أحبار اليهود ونبيهم . . . واسمه معناه: الدائم الذكر والتسبيح.

وأوضح قصة في السورة هي قصة مريم، وتتعلَّق بها قصة زكريا ويحيى . . .



وواضح التركيز على قضية التوحيد التي خالفها أتباع عيسى في نهاية السورة في:

١- التذكير بخلق الله سبحانه وتعالى للإنسان:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

٢- التنديد بقضية الشريك:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١].

٣- التنديد بقضية ادعاء الولد لله:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨: ٩٠].

وكلها متعلقات بقضية مريم... واسم السورة.

محاور السورة الأساسية:

تدور السورة على محورين أساسيين يلخصهما اسمين من أسماء الله الحسنى هما: (الرحمن والوهاب).. فالسورة تدور على محوري الرحمة والعطاء.

*** المحور الأول: الرحمن:**

تبدأ السورة بالرحمة

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

والجو الأساسي في كل السورة تظله الرحمة، ونجد أن كلمة الرحمة ومترادفاتها ومعانيها تتردد في السورة عدَّة مرات:

وأَكْثَرُ اسم من أسماء الله يتردد في السورة هو الرحمن.

- فمع زكريا رحمة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

- ومع يحيى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣] والحنان هو الحب مع الرحمة.

- ومع مريم: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

- وعيسى للناس: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١].

- ونذر مريم الصوم للرحمن: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

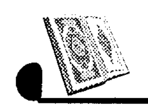
- ولم يكن عيسى جبارًا.. وهي عكس الرحمن.

- ومع إبراهيم في تذكيره لأبيه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

- حتى العذاب! فهو من الرحمن: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥].

فيلمح لأبيه برحمة الله التي إذا لم يغتنمها فسيكون العذاب.

- ويهب الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من رحمته: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].



- وموسى يهبه الله هارون من رحمته: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

- والأنبياء يسجدوا إذا تتلي عليهم آيات الرحمن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

- وفي قمة غضب الله من الكافرين هو الرحمن: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩].

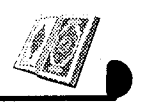
وكأن الله نظر إلى الناس واستخفافهم لاسم الرحمن فقرن جبروته وعظمته وأخذه باسم الرحمن: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

- والذي كفر: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨].

- والمجرمون: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

- وعجيب ذكر الله اسم الرحمن في الموقف التالي: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٣].

- أما المتقين فالطبيعي أنه الرحمن معهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ



إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

وهكذا ينتشر اسم الرحمن في السورة وتفيض الرحمة بين ثناياها.

حتى في مواقف الشدة يذكر الله - تعالى - المغترين بكونه الرحمن أنه أيضًا العزيز المنتقم.

وكذلك يبدو من ذكر اسم الله الرحمن ردًا على من أنكروا أن يتصف الله سبحانه وتعالى أو يتسمى بهذا الاسم كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

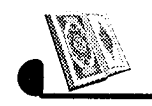
*** المحور الثاني: الوهاب:**

وتتضح قمة الرحمة في أن يكون العطاء هبة.

لقد أراد الله لبني آدم الهداية، ولم يُرِد لهم المصير الواضح في آخر السورة.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨- ٧٢].

وقد أعطانا الله مثالاً للذين اتقوا من الأنبياء والصديقين...



وبيَّن عطاءه لهم فيعرض علينا صورًا من قصصهم حيث تجتمع كل الصور تحت **اسم الله المعطي الوهاب**؟!

- زكريا يدعو ربه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

- وتأتي الإجابة بشرى وإيتاء وهو العطاء على شكل هبة: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢، ١٣].

- ومريم يهبها الله عيسى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

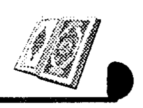
- وعيسى عبد الله وهبه الكتاب: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] والإيتاء هبة كما بينا.

- وإبراهيم: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

- وإسحاق ويعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

- وموسى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

- وإسماعيل: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥]، والرضا هبة وعطاء.



- وإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧]، وهل هناك هبة أعلى من رفع المقام.

- والأنبياء جميعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾. [مريم:٥٨]

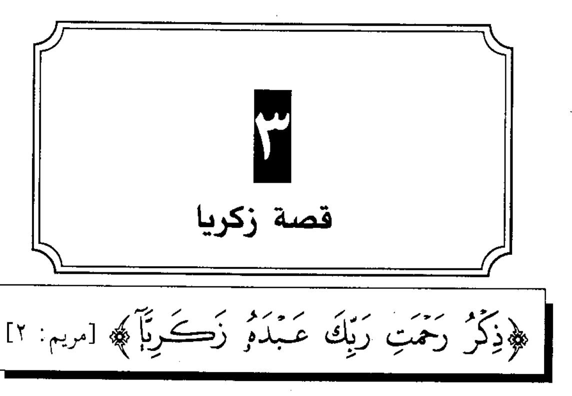
فكان مقابل هذا العطاء الفيَّاض والهبات المتوالية ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]

وهكذا تبدو الظلال الوارفة في السورة تحت جناحي الرحمة والهبة وتجلي أسماء الله الرحمن والوهاب أمَّا مَنْ يستهين بعطائه ومن يستهين برحمته:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٣٧- ٤٠].

❁ ❁ ❁





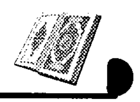
٣
قصة زكريا

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]

هذه مسيرة التوحيد في حياة البشر التي بدأت بآدم ثم نوح ثم إبراهيم، ووصلت إلى سليمان وداود عليهما السلام.. ولكن للأسف وصلت إلى قوم وصفهم الله بأنهم قتلة الأنبياء وهم اليهود، وكان آخر أنبيائهم أراميا من ذرية يعقوب، وفي عصره شتَّت بختنصر اليهود وخرَّب بيت المقدس... ثم أنعم الله على اليهود مره أخرى وهلك بختنصر... وعاد بيت المقدس...

وقالوا: إنَّ القرية المقصودة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [مريم: ٢٥٩] هي بيت المقدس، وقالوا: إنه لم يبق يحفظ التوراة بعد تدمير القدس إلا نبي الله عزير هذا الذي مر على القرية (القدس) وهي خراب.

وعادة مسيرة أنبياء بني إسرائيل إلى عمران وزكريا... من



نسل سليمان بن داود حيث تزوَّجا أختين (حنة وأشياع)[1].

وأنجبت حنة (مريم) وأنجبت مريم (عيسى).

وأنجبت أشياع (يحيى) فعيسى وزكريا ابني خالة.

وورد في حديث الإسراء والمعراج عندما وصل رسول الله إلى السماء الثانية يقول: «**فَإِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ**».

ففي رواية أن أشياع أخت مريم:

ومرَّ بنا قصة ولادة مريم في التعريف باسم السورة، وعرفنا أن زكريا تكفَّل مريم ليرعاها[2].

في المحراب:

كانت مريم بنت شيخهم عمران، فاختصم الأحبار جميعًا أيهم يكفل مريم اليتيمة؟ وكان زكريا زوج خالتها ونبيهم، ولكنهم أصرُّوا على الاقتراع بإلقاء الأقلام في النهر، فخرج قلم زكريا أكثر من مرَّه، وفي ذلك يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا

(١) واسمها في الإنجيل (الياصابات) والذي ينطق في اللغة الإنجليزية إليزابيث.

(٢) ورد قصة ولادة مريم وتكفل زكريا بها في سورة آل عمران (٣٣-٣٧). وراجع القصة بالتفصيل في موسوعة (نساء أضأن التاريخ المجموعة الأولى الكاملات الأربعة وأفضل النساء) للمؤلف.



كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وكان زكريا يتفقَّد مريم في محرابها ويزورها هناك في خلوتها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿هُنَالِكَ﴾ في هذا المكان (المحراب) وفي هذا الموقف (عندما وجد فيض الله على مريم) وفي هذا الحال (من الشعور بالحاجة الشديدة إلى الله) ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ﴾: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

نداءًا خفيا:

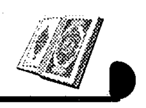
ونجد تفصيل هذا الموقف وطريقة الدعاء في سورة مريم:

> ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٢، ٣].

وقد سأل الصحابة رسول الله يومًا: يا رسول الله، أقريب ربُّنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1] [البقرة: ١٨٦].

---

(١) تفسير أبي حاتم (٦/ ٣٠٩)، تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى . . .﴾.



وسأل موسى: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك، فإني أحس حسن صوتك ولا أراك، فأين أنت؟ قال: يا موسى أنا أمامك وعن يمينك وعن شمالك، يا موسى، أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا ناداني.

وسأل رجل أحد الصالحين: ماذا يقول الله للعبد حين يدعوه وهو صائم؟ فقال: يقول له: لبيك. قال: وماذا يقول الله للعبد حين يدعوه وهو قائم؟ قال: يقول له: لبيك.

قال: وماذا يقول الله للعبد حين يدعوه وهو عاص خائف؟ قال: يقول له: لبيك، لبيك، لبيك.

وعن سلمان عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدُّهُمَا صِفْرًا. أَوْ قَالَ: خَائِبَتَيْنِ**»[1].

وكان وقت دعاء زكريا عند رؤية عطاء الله: ﴿**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، ولذلك فإن من الأوقات المتقبل الدعاء فيها عند نزول المطر وهو عطاء من الله تعالى.

قال ابن القيم: وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب.. وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة؛ وهي:

١- الثلث الأخير من الليل.

---

(١) رواه ابن ماجه، ح (٣٨٦٥).



٢- وعند الآذان.

٣- وبين الأذان والإقامة.

٤- وأدبار الصلوات المكتوبة.

٥- وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تُقْضَى الصلاة.

٦- وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذلًّا به وتضرُّعًا ورقَّة.

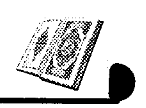
واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله.

وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنَّى بالصلاة على محمد ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة، وتملَّقه ودعائه رغبة ورهبة، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدَّم بين يدي دعائه صدقة...

فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرَدُّ أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي وردت عن الحبيب ﷺ وفيها الاسم الأعظم..[1].

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

(١) الداء الدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، ابن القيم، ص ٣١ تحقيق: السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٨٦م.



قال قتادة عند تفسيرها: (إن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي)، وقالوا: إنه نادى من الليل: (يا رب، يا رب، يا رب) فأجابه الله: (لبيك، لبيك، لبيك).

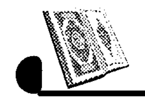
وقالوا: أخفى دعاءه؛ لئلا ينسب إليه الرعونة لكبره وهو يطلب ولدًا.

واعلم أن في الشكوى راحة، ولمن يشكو المضطر إذا لم يشكو إلى ربه؟! وقد علم سبحانه وتعالى ذلك من فطرة البشر، ففرض عليهم عبادة الدعاء؛ لأنهم تستريح قلوبهم عند البثِّ والشكوى، وتستريح أكثر أنهم عهدوا بأعبائهم إلى مَنْ هو أقوى وأقدر.

دعاء زكريا:

والله سبحانه وتعالى بين نص الدعاء الذي دعا به زكريا في سرِّه، وذلك في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وفي سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٤، ٦].



وبالنظر إلى هذه الصيغ المتعددة، لدعاء زكريا الخفي نجد الآتي:

١- الإلحاح في الدعاء مع تعُّدد صوره.

٢- تعدد أشكال الدعاء بين طوله وقصره.

٣- الدعاء بالمصارحة والدعاء بالتورية والاستحياء من الله.

٤- عرض الحال (في صيغة سورة مريم).

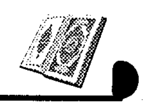
٥- نداء الله بما وصف به نفسه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

٦- لم يطلب أي ولد بل: ذرية طيبة، وليًا لأبيه، يرث النبوة، رضيًا.

٧- وفي دعائه قال: (رب). ولم يذكر حرف النداء (يا)، وهي إشارة أنه لا واسطة بين الله والعبد حتى وإن كانت حرف النداء (يا).

أما بالنسبة لدعاء سورة مريم فإذا تأمَّلْناه سنجد أنه:

«أولًا»: قدَّم بين يدي دعائه عرضًا لحاله. ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤]؛ لأن العظم إذا وهن وهن باقي الجسم، و﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، أي: أن الشيب قد انتشر في رأسه، والعبارتان دلالة على ضعف الباطن والظاهر.



«**ثانيًا**»: قدَّم اعترافه بفضل الله الدائم، وسابق نعمه وعطائه له ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] في شبابي، فهل أشقى وأنا أدعوك وأنا في ضعفي ومشيبي. وواضح قمَّة التذُّلل والمسكنة لله.

«**ثالثًا**»: أضاف إلى رغبته- التي لم ينكرها- في أن يكون له ولد نية أساسية وهي عدم اطمئنانه على دعوة التوحيد أن يتركها في يد مَنْ لا يحفظها ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥] والموالي هم العصبة، ومن ورائي أي: من بعدي.

وفي قراءة: (خَفَّتْ) أي: قلَّت، وهي دلالة على لهفة الداعية على توريث الدعوة والاطمئنان على من يحملها من بعده: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، وخاصة أن فساد بني إسرائيل الشديد قد وصل ذروته في هذا العصر، حيث إن زكريا ويحيى وعيسى كانوا آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسلهم الله معًا في زمن واحد، فتخيلوا أمة تحتاج أن يرسل إليها ثلاثة أنبياء كبار.

«**رابعًا**»: هذا البيان هو نوع من اعتراف لله بالقدره المطلقة.. وهو أدب في الدعاء ألا تظنَّ أن هناك شيء يعجز عنه الله تعالى، فتقول: هل ممكن أن يفعله الله لي؟ لابد من اليقين أن الله -تعالى- ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، فقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، اعتراف بطلاقة القدرة الإلهية والمعجزة هنا في



كونها عاقرًا وعجوزًا وهو -زوجها أيضًا- عجوز جدًّا يترواح سنه من ٩٠ إلى ١٢٠ سنة.

وبعد أن عرض زكريا حاله كلَّه على الله.

ربِّ (بدون النداء لمعرفته قربه الشديد) أنا زكريا نبيك، كبر سنِّي، ووهن العظم، واشتعل الشيب في رأسي، وامرأتي عاقر عجوز لا تلد، والموالي من عصبتي قَلُّوا... وأخاف منهم، وأنت أعلم بدينهم، وأنا فرد وحيد ليس لي عون، وأنت سميع الدعاء، وأنت خير الوارثين، لم تُعَوِّدني إلا السعادة بدعائك.

بعد ذلك كله بدأ يطلب: لا تزرني فردًا، وَهَبْ لي ولدًا بل ذرية.

والهبة هي العطاء بلا مقابل فجميع الأسباب معطلة والمقدمات تدل على أن النتيجة صفر ولذلك فإن زكريا يطلب هبة وهو يعلم افتقاره للأسباب وهو نفس حال إبراهيم عندما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ويتضح خلوص الهبة من الأسباب في قوله ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك أنت دون تدخل أي سبب.

ثم يُحَدِّد طلبه أكثر وأكثر: هذا الولد وتلك الذرية: طيبة... تواليني وترق تركة الدعوة التي أحملها ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].



رضيـــًا:

والرضيُّ هو الذي يرضي ويُرضي، ويُعَلِّم الناس الرضا.

وقالوا: مرضيًّا عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه.

وقد ورد فضل الرضا في قوله ﷺ: **«من قَالَ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَام دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا. مَنْ قَالَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»**[1].

وأن الرضا من علامات الإيمان فلما سألهم ﷺ: **أمؤمنون أنتم حقًّا؟** قالوا: نعم. قال: **وما علامة إيمانكم؟** قالوا: نرضى بالقضاء[2].

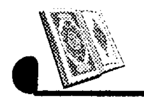
ميــراث الأنبيـــاء؟

ثم يحدد زكريا الوظيفة العظيمة التي يريد هذا الولد لها:

---

(١) ورد بلفظ قريب وهو: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى رضينا بالله ربًّا.... إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه» في ضعيف أبي داود (١/٤٩٩) رقم (١٠٧٨)، ضعيف الجامع رقم(٥٧٣٤)، ضعيف الترغيب والترهيب (١/٩٨) رقم(٣٨٤)

(٢) أورده ابن تيمية في كتاب الإيمان (المكتب الإسلامي) بيروت (١/١٠١).



﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]

وأول خاطر عندما نقرأ هذه الآية: أن الوراثة مقصود منها وراثة الدعوة، وقد بيَّنَّا أن بني إسرائيل وصلوا إلى قمَّة الفساد الديني في عصر زكريا..

ولكن لأن الهوى مصدر الاختلاف فقد قال البعض: أن الوراثة هي وراثة المال والملك. وهذه من الموضوعات المشهورة عند الشيعة، ووافقهم ابن جرير الطبري حيث روي حديث عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي زكريا ما كان عليه من وراثة ماله**»(١).

ولمناقشة هذا الرأي نستعرض النقاط التالية:

أولاً: لماذا ادَّعوا هذا؟

كان من خمس رسول الله ﷺ في خيبر قرية تسمى «فدك» مات عليه الصلاة والسلام وتركها.

قالوا: إن أبا بكر رضي الله عنه رفض توريث فاطمة بنت

---

(١) يقول ابن كثير عن هذا الحديث وأمثاله مما ذكره الطبري: وهذه كلها مراسيل لا تصمد أمام ما عارضها من الصحيح والمرسل نوع من أنواع الحديث الضعيف والذي سقط من سلسلته الصحابي فهو عن التابعي (الحسن البصري) عن النبي ﷺ مباشرة، ورواه ابن حجر في فتح الباري (دار المعرفة - بيروت١٣٧٩) (١٢/ ٨) عن الحسن مرسلاً من طريق مبارك بن فضالة.



محمد ﷺ إيَّاها رغم أنها طلبتها منه... وحكوا قصصًا عجيبة في هذا الشأن عن مطالبة فاطمة وعلي (زوجها -رضي الله عنهما) لها ورَفْضِ أبي بكر رضي الله عنه، بل سردوا من الأحداث ما قصدوا به الإشارة إلى سوء خلق الصدِّيق في التعامل مع فاطمة بنت النبي ﷺ، مما لا يتقبله العقل السليم، فما بالك بالقلب السليم.

ولكن القصة الحقيقية كما وردت في أكثر من موضع من صحيح البخاري أنه لما جاء علي يطلب فدك من أبي بكر -وكان عنده جمع كبير من الصحابة- ذكَّره أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»(١). فذكر علي ذلك ورجع عن طلبه،

---

(١) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ -عَلَيْهَا السَّلَامُ- بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِى بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكَ، وَمَا بَقِىَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الْمَالِ». وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وسلم فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئاً فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِى بَكْرٍ فِي ذَلِكَ فَهَجَرَتْهُ، فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ، دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلًا، وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَكَانَ لِعَلِيٍّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجُوهَ النَّاسِ، فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِى بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الأَشْهُرَ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ أَنِ ائْتِنَا، وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ، كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ. فَقَالَ عُمَرُ لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي، وَاللَّهِ لآتِيَنَّهُمْ. فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ فَقَالَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ، وَمَا أَعْطَاكَ، اللَّهُ وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْراً سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بِالأَمْرِ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيباً. حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِى بَكْرٍ،=



وضُمَّت فدك إلى بيت المال ينفق منها على بيوت رسول الله ﷺ وعلى مصالح المسلمين[(١)].

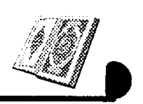
وسلمها عمر في خلافته لعلي والعباس يتصرَّفوا فيها كما تصرَّف أبو بكر، كنوع من التكليف والانتداب، فهم أولى الناس بذلك حيث قرابتهم من رسول الله ﷺ.

وكانت فدك مع علي بن أبي طالب في خلافته، فلم يقسمها على الورثة، بل أبقاها كما كانت في عهد الثلاثة السابقين!! وهذه حجة بالغة على قناعة علي رضي الله عنه بموقف من سبقوه.

= فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي، وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَمْوَالِ، فَلَمْ آلُ فِيهَا عَنِ الْخَيْرِ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْراً رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ. فَقَالَ عَلِيٌّ لأَبِي بَكْرٍ مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةُ لِلْبَيْعَةِ. فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِيَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَتَشَهَّدَ وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ، وَتَخَلُّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ، وَعُذْرَهُ بِالَّذِي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ، وَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ، وَحَدَّثَ أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَا إِنْكَاراً لِلَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الأَمْرِ نَصِيباً، فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا، فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا، فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا أَصَبْتَ. وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيباً، حِينَ رَاجَعَ الأَمْرَ الْمَعْرُوفَ .

أخرجه البخاري بأرقام (٢٩٢٦)، (٣٥٠٨)، (٣٨١٠)، (٣٩٩٨)، (٦٣٤٦)، (٦٣٤٩)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير باب قول النبي ﷺ: «لا نورث» رقم (١٧٥٩).

(١) وهو شكل مشابه للأوقاف في عصرنا الحالي .



ثم إن من الورثة لرسول الله ﷺ غير ابنته السيدة عائشة رضي الله عنها ابنة أبي بكر التي منعها عنها أيضًا، وكذلك منهم حفصة أمُّ المؤمنين ابنة عمر وبقية زوجات النبي ﷺ ثم عصبته ﷺ حيث لم يكن له ولد... فلماذا فاطمة بالذات التي وقعت لها قصة المطالبة؟(*)

ولقد روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّىَ النَّبِيِّ ﷺ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ فَيَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ عَائِشَةُ لَهُنَّ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»**[1].

ثانيًا: الرد على أن (يرثني) بمعنى وراثة المال:

١- الحديث السابق وهو متَّفق عليه، ومرويٌّ في كل كتب السنة -تقريبًا- عن جماعة من الصحابة، وقد رَوَى هذا الحديث وصححَّه أحمد بلفظ يعم الأنبياء جميعًا: **«إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَئُونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِي صَدَقَةٌ»**[2].

(*) تراجع تفاصيل أكثر للقصة في موسوعة (نساء أضأن التاريخ) المجموعة الأولى بعنوان (الكاملات الأربعة وأفضل النساء).

(١) البخاري (٦/ ٢٤٧٥)، (٦٣٤٩)، ومسلم (٣/ ١٣٧٩) رقم (١٧٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٦٣) رقم (٩٩٧٣)، وقال الأرنؤوط إسنادة صحيح على شرط الشيخين. وانظر الأوسط للطبراني (٥/ ٢٦)، (٤٥٧٨) سنن النسائي (٤/ ٦٤) (٦٣٠٩) الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٣٩٠) (١٨٧٢).



٢- أن الدنيا كانت أحقر على الأنبياء من أن يكنزوا لها، وأن يسألوا الولد ليحوزوها بعدهم، فمن هو أقل منهم زهدًا لا يفكر في هذا.

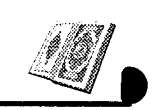
٣- أن زكريا كان نجَّارًا كما روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّاراً**» فأين المال الذي يورثه.. وكان يأكل من عمل يده.

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

وكان لداود أولاد غير سليمان، فكيف يرث ماله وحده، وكان داود فقيرًا، يأكل من عمل يده أيضًا، فماذا ورث سليمان؟ وواضح أنها وراثة الدعوة[١]، أما اتِّساع ملك سليمان بعد ذلك فهو فضل الله تعالى عليه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾. [النمل:١٦].

---

(١) واختلف العلماء هل هي وراثة نبوة؟ أي هل النبوه تصلح أن تورث وهي اصطفاء كما بين الله تعال في قرآنه؟ ورفض ذلك الطبري: حيث النبوة لا تورث ولذلك اختار وراثة المال أو الحكمة.. إلا أنها يمكن أن تكون ميراث الدعوة وحمل لواء التوحيد والخير، أما النبوة فهي اصطفاء فقد يكون ذلك الداعية أهلًا للنبوة فيوحي له الله وقد يكتفي بأن يكون مصلحًا، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أن علماء بني إسرائيل كانوا في مرتبة الأنبياء .



٥- أيضًا كلمة الوراثة وردت في سورة مريم بمعنى وراثة الأعمال:

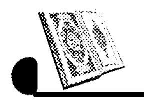
﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧- ٨٠].

٦- أما الحديث... «**رحم الله أخي زكريا...**»(١). فقد ورد بروايتين مرسلتين عن الحسن وعن قتادة، وقال ابن كثير: هذه مرسلات لا تعارض الصحيح(٢).

* * *

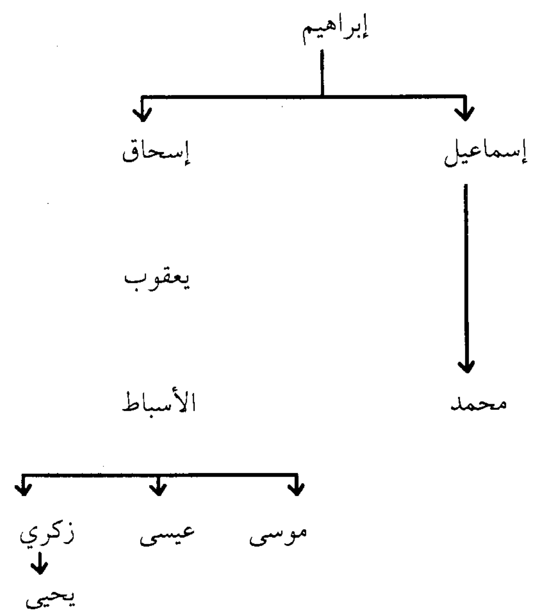
(١) تقدم تخريجه.

(٢) والحديث المرسل هو الذي سقط اسم الصحابي من سنده فأصبح عن التابعي عن رسول الله مباشرة... وهو من أنواع الضعيف حتى لو كان سنده إلى التابعي سليمًا، وللعلماء آراء متعددة في العمل به وشروط ذلك، أرجحها عدم العمل به عند وجود صحيح يعارضه.



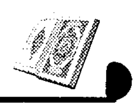
﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦].

ومعروف أن إبراهيم أنجب إسحاق وإسماعيل، وكانت النبوة في إسحاق من ولده يعقوب، وزكريا من نسل يعقوب وآخر نبي من بني يعقوب هو عيسى الذي كانت من رسالته البشارة بنبي يأتي من الفرع الثاني من نسل إبراهيم بني إسماعيل اسمه أحمد وهو محمد ﷺ.



وكان يحيى يقول: «يأتي بعدي من هو أقوى مني.. الذي لست أهلًا أن أنحني وأحل سيور حذائه»(١).

(١) كما ورد في إنجيل مرقس ١: ٧.



ويفسرها النصارى أنها بشارة بعيسى رغم أنه جاء معه وليس بعده.

وكان عيسى يقول ما يقول يحيى بعد موته:

«قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل»(١) وضرب مثلًا لملكوت الله قال «بماذا نشبه ملكوت الله.. مثل حبة خردل متى زرعت في الأرض فإنها أصغر جميع البذور التي على الأرض... ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول وتصنع أغصانًا كبيرة.. حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلِّها)(٢).

«وإن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره»(٢).

ماذا تعني هذه النقول من الإنجيل والتي جاءت على لسان عيسى عليه السلام؟ وما هو ملكوت الله الذي اقترب وما هي الحبه الصغيره التي هي أصغر جميع البذور؟..

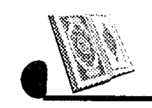
وما هي الأغصان الكبار التي ستخرجها؟ وما هي الأمه التي ستحمل أثمار ملكوت السماء الذي يعني حمل دعوة التوحيد الذي حملها بنو إسرائيل (قوم عيسى) والذي يوجه إليهم ذلك الخطاب؟

ألا يحتاج الأمر إلى تدبر من خلال نظرة أشمل وأعمق من مجرد التعصب لمورث؟!

---

(١) مرقس ١: ١٥ .

(٢) مرقس: ٣٠- ٣٢ .



وقصة زكريا ويحيي عندما جاء بها القرآن مقترنة بقصة ميلاد عيسى بعدها لهي إشارة إلى أنه قد انتهى عهد الوحي لبني إسرائيل الذين كلفهم الله أن يحملوا ميراث النبوة، وأن يسيروا بدعوة التوحيد في البشر، فما رعوها حق رعايتها، وأمهلهم الله مئات السنين، وأرسل إليهم كبار الأنبياء يدعونهم للالتزام بما بين أيديهم من الكتاب والعهد الذي أخذه الله عليهم، ولكن كان كل يوم يمر يدل على شدة انحرافهم.

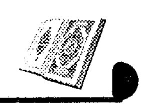
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وهكذا تمت النبوة في بني إسرائيل بعيسى عليه السلام؛ لتنتقل بعد ذلك إلى الفرع الثاني من ذرية إبراهيم، وهو فرع بني إسماعيل؛ ليكون منهم النبي الخاتم محمد ﷺ.

واستجاب الله لزكريا:

كان هذا هو الدعاء، فكيف كانت الإجابة؟

في سورة آل عمران كان الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وكانت الإجابة: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].



وفي سورة الأنبياء كان الدعاء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وكانت الإجابة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

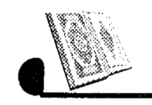
وفي سورة مريم كان الدعاء: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]

لقد استجاب الله لزكريا، ولم تكن الإجابة فقط! بل عجَّل الله له البشرى، فأرسل إليه الملائكة بالاستجابة وهو قائم يصلي في المحراب، وينادي باسمه ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ كنوع من الأُنْس والبُشْرى وسرعة الإستجابة لدعائه دون مقدمات، ويختار الله اسم الولد ﴿يَحْيَىٰ﴾..

الذي هو متفرد في اسمه وفي رسمه وصفاته فلم يسمى أحد من قبل باسمه.

ويبين الله في آيات سورة الأنبياء بعض عوامل إجابة الدعاء؛ ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].



ويتلقى زكريا البشارة فيطير فرحًا، فهو الرجل العجوز صاحب العمر الطويل، والهم الثقيل، والمسئولية العظيمة، وصاحب الزوجة العقيم... الكبيرة السن، يبشر بغلام ويأخذ العجب بمجامع قلبه، ويتوجَّه بعجبه إلى ربه... ونلاحظ أن الملائكة هم الذين حملوا البشارة ولم يسألهم زكريا بل سأل ربه:

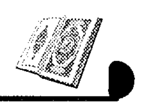
﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]

وسؤال زكريا هنا هو سؤال النبي الذي يريد المعرفة والتزود منها وهو نفس سؤال إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وهي فطره في بني آدم.. الرغبة في المعرفة؛ كيف سيتم ذلك يارب؟

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]

ويأتيه الردُّ يعيده إلى إيمانه ويقينه بقدرة ربِّه.

السؤال المتعجب، الفرحان المستبشر الذي يشعر بعظم الأمر بمقاييس البشر وسهولته على الملك القدير، وتأتي الإجابة أن الأمر متعلِّق بأن يقول الله سبحانه وتعالى.. ولا يقول الله أكثر من كن فيكون: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].



وفي سورة آل عمران:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

ونلاحظ بساطة اللغة التي يحدث بها الملك سبحانه وتعالى عبده وذلك في سهولة الرد ويسره: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ [مريم: ٩].

ثم يتحول الحوار من الخطاب الموجَّه إلى الحديث عن الذات، والقلم يعجز عن التعبير عن شعور زكريا، والله تعالى يحدثه بهذا الأسلوب المقترب جدًّا إلى درجة أن يكلمه عن نفسه سبحانه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩]، أليس أهون من خلق الأرض مثلًا، وكل خلق على الله هين، وتذكر ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

كذلك:

وانظر إلى كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في سورة مريم، وفي سورة آل عمران ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

أي: أن الأمر عادي وطبيعي وبسيط؛ لأنه صادر من الله. وكذلك تدل على استمراره فقد كان مثله وأعظم منه من قبل وسيكون مثله وأعظم منه من بعد.

فهل عرفت الله؟!! إذا عرفته فستدرك مقدرته، ولكن: ﴿وَمَا



قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

خلق الله آدم بلا أب ولا أم فهذه معجزة، وخلق حواء من أب وبلا أم وهذه معجزة أخرى، وهل خلق الإنسان من أب وأم غير معجز؟!

وتشعر أن كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تدلُّ على أنه هناك أمثلة عديدة لطلاقة القدرة وكذلك سيكون هذا الخلق... ومن هذه الأمثلة: أبوك إبراهيم، فقد أنجب إسماعيل من هاجر وهو عجوز ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤].

ومثال آخر مع أبيك إبراهيم وهو خلق الولد من أب وأم عجوزين، وقد يأست المرأة من الإنجاب- زوجة إبراهيم سارة وابنها إسحاق: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

وخلق الولد من أب وأم طبيعيين ولكن كانت الأم لا تلد مثال: عمران وحنه والدي مريم.

وفي حالة زكريا كانت المرأة عاقرًا، وقد بلغت السن الكبير، فيأست من الإنجاب مثل سارة، والزوج زكريا قد بلغ من الكبر عتِيًّا مثل إبراهيم.

إذن المشكلة الجديدة هي أن الزوجة عاقر؟ بسيطة: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وتلاحظ في سورة الأنبياء أنه قال:

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بعد قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وكأنه يبين له أيضًا هنا أن الأمر غير متعلق بالأسباب فإصلاح الزوجه ليس شرطًا لحدوث الهبة.

ثم انتظر فسوف تكتمل القدرة المطلقة، وقد جهزنا الكون لتقبُّل المعجزة القادمة: ميلاد عيسى ابن مريم بلا أب.

ذلك لتعلم أن الله لا تُحَدُّ قدرته حدود، وأنه خالق الأسباب وربها، وأنه خالق السنن وربها، وأنه خالق النواميس وربها: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

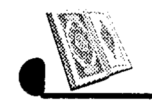
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ﴾ [آل عمران: ٤١]

ويكل الصبرُ بزكريا، ويأخذه الفرح، ويتعجَّل بشرى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ﴾ [مريم: ١٠] علامة أتعرَّف بها على أن بشارتك حدثت...

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] أن يجد نفسه لا يستطيع الكلام رغم عدم وجود داء فهو (سوي) أي: معافى.

وفي سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران: ٤١].



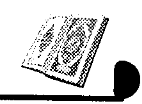
أي: بالإشارة، والليل لا حاجة فيه للكلام غالبًا، أما النهار (الأيام) فهناك حاجة للكلام مع الناس، فأباح الله له الرمز في الأيام ولم يذكره في الليالي.

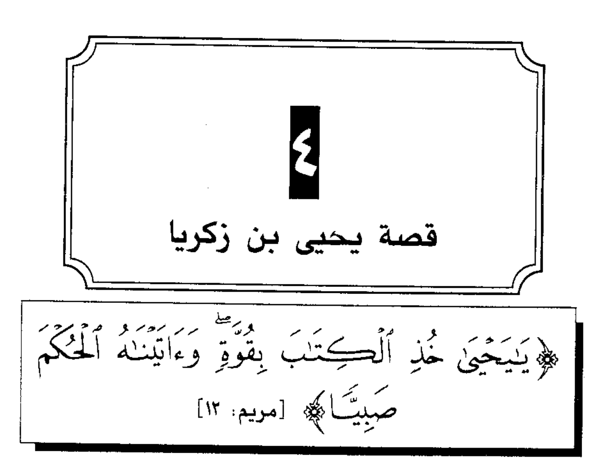
والحكمة من عدم الكلام تتَّضح في توجيه الله له بعد ذلك: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

إنها معجزة، والكون كله معجزة، وهي تحتاج إلى ذكر كثير وتسبيح كثير، فالطاقة التي تعين الإنسان على تلقِّي فيض ربه هي الذكر؛ ولذلك لما جاءت البشرى زكريا وعرف الآية خرج على قومه وأشار إليهم أن يفعلوا مثله ويسبحوا ويذكروا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ رمزًا بطريقة الإشارة كما أخبر الله، فكان هو يسبح بالعشي والإبكار، وأمرهم أن يسبحوا بكرة وعشيًّا، حتى تتناغم حركة الكون كله في التسبيح تمجيدًا لله العلي الأعلى، وتنزيهًا لقدراته أن نستقلَّها وتعظيمًا لعطائه لنا، ثم احتفالًا واستقبالًا للمولود الجديد السيد.. الحصور.. النبي.. الرضي يحيى بن زكريا.

وكأن الستار ينزل على هذا الفصل من قصة زكريا، وما زالت أصداء التسبيح تتهادى في الكون، وما زلنا في تسبيح لينفرج الستار مرة أخرى على قصة جديدة من قصص التوحيد.





٤

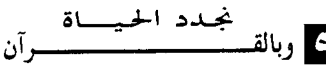
قصة يحيى بن زكريا

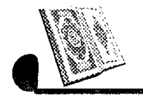
﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]

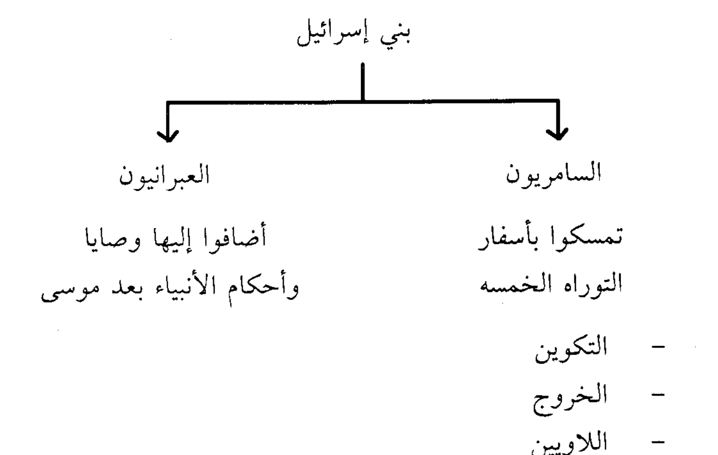
سمى الله تعالى (يحيى) وهي عكس (يميت) واستدل العلماء على أن هذه التسمية نوع من البشارة بأن يحيى سيموت شهيدًا ليظل حيا كما سماه الله . . وقد كان.

كبر يحيى وأصبح صبيًا وها هو يوحي إليه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] كما وعد أبيه أن يأتيه النبوة وهو صغير: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

الكتاب هو التوراة، وقلنا: أن عزير كتب التوراة مرة أخرى لليهود بعد عودتهم إلى بيت المقدس، ولكنهم حرفوها وانقسموا إلى فريقين بعد موت سليمان:







(العبرانيون) وهم نسل يهوذا وبنيامين، و(السامريون) وهم باقي الأسباط العشرة، واتهمت كل طائفة الأخرى بأنها التي حرفت التوراة، وادعت كل طائفة أن ما لديها من توراة هي الحق، واتَّفقوا على خمسة أسفار: التكوين (قصة الخلق)، والخروج (خروج موسى من مصر)، واللاويين (الأحبار)، والعدد (يذكر أولاد يعقوب حتى موسى)، والتثنية.

أما الوصايا والأحكام التي نزلت على الأنبياء من بعد موسى وأُلْحِقَتْ بالتوراة فقد قبلها العبرانيون ورفضها السامريون، واستمر الأنبياء بعد موسى على شريعته يدعون إليها ويعملون بها، ولذلك قال الله ليحيى وهو آخر نبي من أنبياء بني إسرائيل قبل عيسى:



﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] أي: تمسَّك بالتوراة الحقِّ التي بيَّنها له الله تعالى، وخُذْها بقوة، وأرشد بني إسرائيل للعمل بها، واجمعهم عليها.

ويبين الله المؤهلات التي وصفها سبحانه في يحيى ليحمل هذه الأمانة:

١- ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]: ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة و﴿صَبِيًّا﴾ حتى كان في صباه يأنف اللعب مع أقرانه، ويقول [ما للعب خُلِقْنا](١).

٢- ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣].

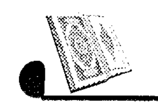
قال ابن عباس: لا أدري ما الحنان. وفي رواية له: رحمة من عندنا. ففسر الحنان بالرحمة.

ويقول ابن كثير: ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحننه على الناس ولا سيما على أبويه ومن الحنان المحبة في شفقة، ومنه التعطف والرحمة.

وهو من أهم صفات الداعية على المدعويين.

---

(١) أورد السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٨٥ أن الغلمان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال يحيى: ما للعب خلقنا.



عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عَبْدًا فِي جَهَنَّمَ لَيُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ: يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ. فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِعَبْدِي هَذَا. فَيَنْطَلِقُ جِبْرِيلُ فَيَجِدُ أَهْلَ النَّارِ مُكِبِّينَ يَبْكُونَ، فَيَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ فَيُخْبِرُهُ، فَيَقُولُ: ائْتِنِي بِهِ فَإِنَّهُ فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا عَبْدِي، كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ وَمَقِيلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، شَرَّ مَكَانٍ، وَشَرَّ مَقِيلٍ. فَيَقُولُ: رُدُّوا عَبْدِي. فَيَقُولُ يَا رَبِّ، مَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ تَرُدَّنِي فِيهَا. فَيَقُولُ دَعُوا عَبْدِي»(١).

وقالوا أن الله عوضه حنان والداه الكبيران بحنان من لدنه سبحانه وتعالى.

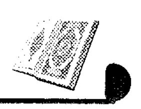
٣- ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: الطهارة داخليًا وخارجيًا.. والنقاء والسلامة من الرذائل.

٤- ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: والتقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد للموت قبل الرحيل. وأبسط معاني التقوى أن يجعل العبد مسافة بينه وبين الحرام يتّقيه بها.

٥- ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤].

---

(١) رواه أحمد، ح(١٢٩٩٨).



وهل يصلح أن يبرَّ بالناس من لا يبرّ الوالدين.

٦- ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ [مريم: ١٤].

والجبار من الناس لا يصلح أن يتعامل مع خلق الله تعالى، والجبار هو الله وحده، وهي صفة خاصة به لا يسمح لعباده أن يتصفوا بها كالمتكبر.

والمتصور في الطفل الذي يربيه أبوان كبيران أن يكون فيه شيء من القسوة عليهما والاستهتار بحقوقهما؛ لأنه لم يرى منهما ما يجده الطفل من الحزم المحوط بالحنان إلا أن يحيى لم يكن جبارًا عصيًا.

٧- ولم يكن ﴿عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

فهو ليِّن هيِّن مطواع مقبول بين الخلق... وهذه كلها معنى أن لا تكون عصيًا.

هذا بجانب الصفات التي طلبها زكريا عندما سأل ربه أن يكون طيبًا، زكيًا، رضيًا، وليًا لأبيه ويرث النبوة.

يحيى في القرآن:

بجانب الصفات التي وردت في سورة آل عمران:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قالوا: هي المسيح حيث أن يحيى اتبع عيسى. وقالوا: هي



التوراة. ولقد ورد في جميع الأناجيل أن الكهنة من اليهود أرسلوا (إلى يحيى ليسألوه: من أنت؟

فقال: «إني لست أنا المسيح» وكان اليهود ينتظرون مسيحهم الذي وُعدوا به.. وقال: «لست إيليا.. ولست النبي..». قالوا: من أنت حتى نعطي جوابًا للذين أرسلونا؟ قال:

- أنا صوت صارخ في البرية.

قوموا طريق الرب.

اصنعوا سبله مستقيمة[1].

(وكان يوحنا (يحيى) يُعَمِّد[*] في البرية بالتوبة والمغفرة للخطايا، وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم، واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردنّ معترفين بخطاياهم. وكان يوحنا يلبس وبر الإبل، ومنطقة من جلد على حقويه، ويأكل جرادًا وعسلًا بريًا)[2].

(فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين (فرق اليهود)

---

(١) (يوحنا ١: ١٩- ٢٣).

(*) اتعميد يشبه الغسل الواجب للدخول في الإسلام... وسكون بماء أيضًا في الديانه اليهودية والمسيحية.

(٢) (مرقس ١: ٣- ٦). المنطقة هي الحزام.. والحقوين هما عظمتي الحوض البارزتين من الجنبين.



يأتون إلى معموديته، قال لهم: «يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم: إن الله قادرٌ أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم»[1].

وجاء عيسى ليتعمد من يحيى مثل بقية اليهود (ولكن يوحنا منعه قائلًا: «أنا مُحتاج أن أتعمد منك وأنت تأتي إليَّ!!؟». فأجاب يسوع، وقال له: «اسمح الآن؛ لأن هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر». حينئذ سمح له)[2].

وذلك لأن النبي في بني إسرائيل لا يعترف به إلا إذا تعمد من نبي قبله.

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، والحصور هو الفقير، فقد كان لا يملك شيئًا[*].

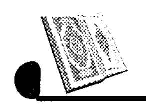
نـؤمـن بالرســل:

وهذه الصفات كلها تتجمع في شخص نبي، والحقيقة أن

(١) (متى ٣: ٧- ٩).

(٢) (متى ٣: ١٢- ١٥).

(*) ذكر المفسرون الكثير من المعاني لكلمة حصورا ومنها أنه لم يقرب النساء... وكان ذلك ميزه في الرجل أو شيء لصيانة النفس وهو ضد ما جاءت به الشريعة من الأحتفاء بالعلاقة بين الرجل والمرأه تحت مظلة الجلال والأسره وعدم اعتبار هذه العلاقة دنس بل وإعطاء الأجر عليها.



معظم هذه الصفات تجدها في أنبياء الله جميعًا، وهذا هو اعتقاد المسلم في الأنبياء أنهم:

١- بشر.

٢- العصمة، من الصغائر، الكبائر.

٣- التبليغ عن الله كاملًا.

٤- الكمال البشري، الخلق والخُلق.

٥- كل نبي بُعِثَ في قومه إلا محمد ﷺ بُعِثَ للعالمين.

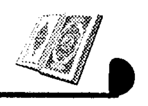
٦- كلهم بعثوا بالإسلام عقيدة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٧- اختلفت الشرائع، وآخر شريعة هي شريعة موسى، وكان الأنبياء بعده متَّبِعوها حتى عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل كان يقول لهم: «لا تظنُّوا أني جئت لأنقض الناموس». ولكن كان يُحِلُّ بعض الأشياء، ويرفع عنهم بعض الأغلال.

٨- محمد ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم فلا نبي بعده.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].



عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(١).

بشارة يحيى وعيسى:

بمطالعة التوراة والكتب الموجودة بأيدي أهل الكتاب نجد أن بعثة يحيى وعيسى كانت للبشارة بمحمد ﷺ، وإبلاغ بني إسرائيل أن النبوة قد انقطعت من نسل يعقوب، وسوف تنتقل إلى نسل إسماعيل.

قال عيسى فيما نقله متى عنه في الإنجيل الذي كتبه متى:

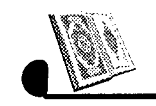
«وإن أردتم أن تقبلوا، فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي... من له أذنان للسمع فليسمع»(٢). وإيلياء هو اسم النبي أحمد في الإنجيل.

«وبعد ما أسلم يوحنا وقتل، جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».

---

(١) رواه مسلم، ح(٥٢٣).

(٢) (متى ١١: ١٤، ١٥).



ويضرب مثلًا لملكوت الله: «وقال بماذا نشبه ملكوت الله؟ أو بأي مثل يمثله؟ مثل حبَّة خردل، متى زرعت في الأرض فهي أصغر جميع البذور التي على الأرض.. ولكن متى زرعت تطلع وتصير أكبر جميع البقول، وتصنع أغصانًا كبيرة، حتى تستطيع طيور السماء أن تتآوى تحت ظلِّها»(١).

هذه هي بشارة عيسى، وكان بنوا إسرائيل يحتقرون بني إسماعيل؛ لأنه ابن هاجر الجارية.

وتقول التوراة: «الحجر الذي رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية».

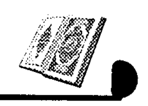
ويقول رسول الله ﷺ: **«مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بناءً حتى إذا كان موضع حجر لم يتمّه فكان الناس يطوفون به ويعجون به، ويقولون: لولا هذا الحجر!! فأنا الحجر، وأنا آخر الأنبياء»**(٢).

ويقول متى نقلا عن عيسى: «إن ملكوت الله يُنْزَع منكم، ويُعْطَى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه».

---

(١) مرقس ٣٠-٣٢.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٠) رقم (٣٣٤١)، ومسلم في الفضائل رقم (٢٢٨٧)، وأحمد (٢/ ٢٥٦) رقم (٧٤٧٩).



رسالة يحيى:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢، ١٣].

وقد جاء يحيى وبني إسرائيل في قمة فسادهم وإفسادهم، فكان لا يحب الاختلاط بهم، وأحب العزلة والبراري، وكان طعامه ورق الشجر، وكان كثير البكاء من خشية الله.

روى ابن المبارك أن زكريا بحث عن ابنه ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه في البرية، فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي على نفسه، فقال: يا بني، أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام، وأنت في قبر قد احتفرته، قائمًا تبكي فيه؟ فقال: يا أبت، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تُقْطَع إلا بدموع البكَّائين؟ فقال له زكريا: ابك يا بني. فبكيا جميعًا.

وكان يقول: إن أهل الجنة لا ينامون للذَّة ما هم فيه من النعيم، فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل.

جاء يحيى وقد استعبدت المادة بني إسرائيل، وأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل؛ يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه، ويقتلون الأنبياء بعد تكذيبهم.



وقد استحكم الذلُّ في أعناقهم بعدما فعل بهم بختنصر وسباهم في بابل، وقد ضاع كتابهم، وانقسموا إلى طوائف جاء وهم يعلمون موقعه فيهم، هو النبي ابن النبي، ووارث نبوة أبيه، ووارث آل يعقوب، وقد أخذ الشكل السلبي في دعوتهم؛ فتركهم وحاله يقول لهم: أنتم على شرٍّ كبير. حتى إنه كان يتمهَّل في تبليغهم بعض الأوامر من ربه مخافة ألا يطيعوه فيهلكهم الله.

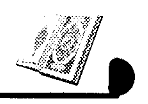
عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ. فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي، أو أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلأَ الْمَسْجِدُ، وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرَفِ؛ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ**»(١):

١- التوحيـــد:

«**أولهن**»: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مَثَل مَن أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٢) رقم (١٧٨٣٣)، والترمذي (٥/ ١٤٨) رقم (٢٨٦٣)، وابن خزيمة(١/ ٢٤٤) رقم(٤٨٣).



ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وَأَدِّ إليَّ. فكان يعمل ويؤَدِّي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟!

٢- الصلاة:

وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

٣- الصيام:

وآمركم بالصيام فإن مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رجل في عِصابة معه صُرَّة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

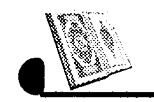
٤- الصدقة:

وآمركم بالصدقة، فإن مَثَلَ ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدَّموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير. ففدى نفسه منهم.

٥- الذكر:

وآمركم أن تذكُروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحْرِزُ نفسه من الشيطان إلا بذكر الله».

قال النبي ﷺ: «**وأنا آمركم بخمس اللهُ أمرني بهن: السمع،**



والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه مِنْ جُثَا جهنم» فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام قال: «**وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين المؤمنين عباد الله**»(١).

وهكذا قامت دعوة يحيى على إحياء التوحيد، والصلاة، والصوم، والصدقة، والذكر.

وظلَّ يحيى يعلِّمهم أن هذه الدنيا لا قيمة لها، ويأمرهم بطريقة عجيبة أن يتخففوا من هذه الدنيا التي أوغلت في قلوبهم، حتى يخط بدمائه أَبْلَغ عِبَرِه؛ أنَّ الحقَّ غالٍ، وأرخص ما يدفع ثمنًا له هو الحياة.

يحيـــى الشهيـــد:

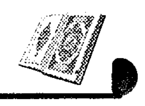
كان ملك من ملوك اليهود يريد أن يتزوج من أحد محارمه، وعلم يحيى بالأمر فوقف أمامه يقول للناس: هذا حرام. فتحايلت المرأة على قتل يحيى وقطع رقبته(*).

ومات يحيى... وتحققت له الشهادة كما أراد الله تعالى، وصعدت روحه إلى ربه تلاحقها تحيَّات الملائكة من ربه:

---

(١) رواه ابن ماجه ح (٢٨٦٣).

(*) راجع تفاصيل القصة في موسوعة (نساء أضأن التاريخ) المجموعة الأولى (الكاملات الأربعة وأفضل النساء) للمؤلف.



﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]

يقول ابن كثير: وهذه ثلاثة أوقات أشدُّ ما تكون على الإنسان، فهو ينتقل من عالم الظَلَمَة إلى عالم الظُلْمَة، ثم ينتقل إلى البرزخ.. بين دار الدنيا ودار القرار... وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سُكَّان القبور.. وانتظر هناك حتى ينفخ في الصور، ليوم البعث والنشور فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور... وما بين جبير وكسير... وفريق في الجنة وفريق في السعير.

ولدتك أمك باكيًا مستصرخًا
والناس حولك يضحكون سرورًا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا
في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

قابل عيسى يحيى عليهما السلام فقال له: ادعُ لي الله فأنت خير منِّي.

فقال له يحيى: بل أنت خير مني.

فقال عيسى: أنت خير منِّي، سلَّم الله عليك، وسلَّمتُ على نفسي(١).

(١) إشارة لقول الله تعالى في يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ وقول الله في عيسى على لسانه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ .



ويقول عيسى: «الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١: ١١).

يحيى في الأناجيل المتداولة[1].

يحيى في الأناجيل اسمه يوحنا المعمدان وهو الذي كان يعمِّد (يطهِّر) اليهود بني إسرائيل في نهر الأردن.

وما زالت هذه عادة النصارى في تعميد أبنائهم في سن معيَّن، أما معناه فهو الذي يستمر حيًّا.. وهذه صفة الشهيد: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهذه بشرى من الله يوم تسميته بأنه سيموت شهيدًا..

في إنجيل مرقس نرى يحيى «صوتًا صارخًا في البرية.. يقول: اعدوا طريق الرب... اصنعوا سبله مستقيمة.

وكان يكرز أي: يتنبأ قائلًا: «يأتي بعدي من هو أقوى مني

---

(١) والأناجيل ليست هي إنجيل عيسى، ولكن كتبها تلامذة عيسى أو من بعدهم تحكي ما شاهده كل واحد منهم من قصته منذ ولد إلى يوم شُبِّه لهم وظنُّوا صلبه، وورد فيها بعض الكلام والعبارات التي نسبها قائلوها إلى عيسى ولا يعترف النصارى أن هناك إنجيل لعيسى وإن كان هناك العشرات من الأناجيل فلا يعترف النصارى إلا بأربعة منها هي (متى ولوقا ويوحنا ومرقس) نزل عليه من عند الله مثل التوراة والقرآن ولكن الإنجيل عندهم هو البشارى التي جاء بها عيسى أن الله غفر خطاياهم التي ورثوها عن أبيهم آدم بموته على الصليب ولن يحصل على هذه البشارة إلا من آمن بنبوة عيسى لله وصلبه في سبيل تكفير خطايا بني آدم.

الذي لست أهلًا أن أنحني فأحل سيور حذائه، أنا عمَّدتكم بالماء.. وأما هو فسيعمِّدكم بالرُّوح القدس. وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردنَّ».

في إنجيل يوحنا يقول:

«وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: من أنت؟

فاعترف ولم ينكر... وأقر: إني لست أنا المسيح فسألوه: إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. ألنبي أنت؟ فأجاب: لا.

فقالوا له: من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية: قوِّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبي».

من هذه الكلمات نجد أن يحيى بشر بنبي يأتي بعده.. أفضل منه يعمد (يطهر) بروح القدس، يقول النصارى: إنه عيسى. ولكن في نفس النص نجد أن يحيى عمد عيسى، وأيضًا أن هناك من يدعى إيليا سيأتي بعد يحيى، هو النبي، وهو غير المسيح بنص العبارة.

وإيليا هذا ذُكِرَ في التوراة في سفر ملاخي: «هأنذا أرسل إليكم إيلياء النبي.. قبل مجيء يوم الرب.. اليوم العظيم».

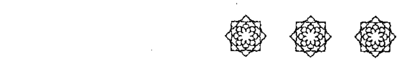


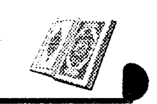
والرسول ﷺ يقول: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**».

بل وعيسى نفسه بشَّر بقدوم إيليا هذا ويعبر عنه بلفظ (النبي) أو المسيا أو «البار قليط» وهي تعبير للكلمة اليونانية بيريكلتوس ومعناها الذي له حمد كثير، أي: أحمد الخلق، والقرآن يقول على لسان عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

ألا يستحق كل ذلك أن تتدبر!!

وانضم يحيى إلى قافلة الأنبياء الشهداء الذين قتلهم بنو إسرائيل وليفسح الطريق للمعجزة التالية التي يحيكها لنا الله سبحانه وتعالى في قرآنه المجيد. . . ميلاد عيسى ابن مريم.





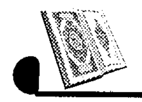
٥
قصة مريم وميلاد عيسى

وصل الفساد في بني إسرائيل إلى قمته وأرسل الله إليهم زكريا نبيًا، وكان فيهم عمران إمامًا من قبلُ، وهم من ذرية سليمان بن داود، الذي أعاد الله لليهود على أيديهم المجد والقوة والعزة، ولكن ما زال اليهود هم اليهود؛ حرَّفوا كتاب الله المنزَّل إليهم وغيَّروا شريعة موسى، وصنعوا طائفة الكهنة والفريسيين، وحولوا الدين إلى كهانة وطقوس عجيبة، وادَّعوا على الله وعلى أنبيائه كل نقيصة وكل زور، وباعوا الدين للملوك وأصبحوا حاجزًا بين الدين وبين الناس: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]..

والأنبياء الثلاثة، زكريا ويحيى وعيسى لاقوا منهم الأمرين؛ قتلوا زكريا ويحيى بالتآمر، وحاولوا قتل عيسى..

وهذا حوار بينهم وبين عيسى يبين لؤمهم:

يذكر لوقا عن عيسى عليه السلام «في أحد تلك الأيام إذ كان يُعلم الشعب في الهيكل.. ويبشر.. وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ، وكلموه قائلين: قُلْ لنا بأي سلطان تفعل هذا؟ أو مَن الذي أعطاك هذا السلطان؟ فأجاب: وأنا أيضًا أسألكم كلمة



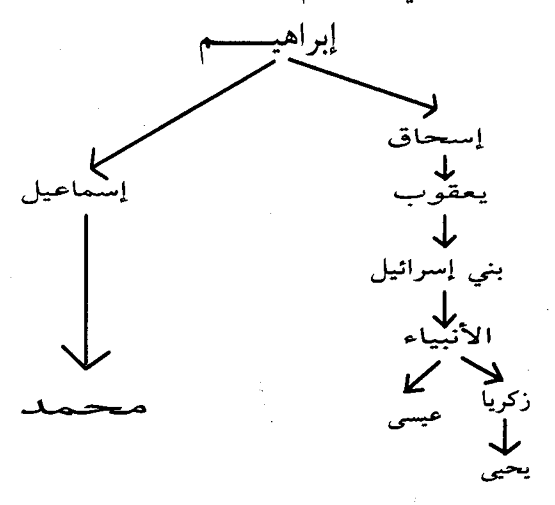
واحدة، هل كانت معمودية يوحنا من السماء أم من الناس؟ فتأمَّروا بينهم: إن قلنا من السماء: يقول: فلماذا لم تؤمنوا؟

وإن قلنا من الناس فجميع الشعب يرجموننا؛ لأنهم واثقون بأن يوحنا نبي. فأجابوا أنهم لا يعلمون من أين، فقال لهم يسوع: ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا..)(١).

إنه نوع من اللؤم، فمِن قبلُ سألوا يحيى: مَنْ أنت؟ واليوم يسألون عيسى: من أنت؟ وهم يعلمون مكانة ذرية يعقوب فيهم...

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وقد أذن الله بختم النبوة بعيسى في آل يعقوب، وأن تنتقل إلى الفرع الآخر من بني إبراهيم



(١) (لوقا ٢٠: ١-٨).



بنو إخوتهم:

وقد ورد في التوراة في سفر التثنية: «أقيم لهم آخر الزمان نبيًا مثلك... من بني إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوحيه».

هذا الكلام بلَّغه موسى، وكلُّ الأنبياء من بعد موسى كانوا من بني إسرائيل، ولم يأت نبي من بني إخوتهم إلا محمد ﷺ وألا يفهم من كلمه (وأجل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوحيه) أنا إشارة إلى معجزة القرآن التي جاء بها محمد ﷺ؟!

جبل فاران:

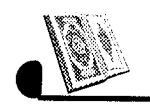
وجاء في وصية موسى:

«جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ في جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار».

ماذا تعني؟ وما هي ساعير؟ وما هو جبل فاران؟

سيناء يقصد بها كلام الله في **سيناء** لموسى، **وساعير** هي جبال فلسطين يقصد عيسى، **وفاران** هي جبال مكة، نسبه إلى فاران بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح الذي نزل مكة ويقصد بها رسالة محمد ﷺ، وآلاف الأطهار هم صحابته.

ألا تشعر أن تلك البشارة تشبه تلك الإشارة التي وردت في

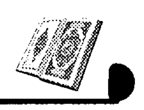


سورة التين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ إشارة إلى مراكز النبوات الثلاثة التين والزيتون حيث أرض فلسطين، وطور سنين حيث كلام الله لموسى في جبل طور سيناء، والبلد الأمين هي مكة حيث رسالة محمد.

> ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]

وعلى أبواب قدوم خاتم النبيين ﷺ، وقدوم خاتم الكتب القرآن، وقدوم خاتمة الأمم وخيرهم، وميلاد الرسالة الخاتمة المهيمنة على ما سبقها- جاء الميلاد المعجز لعيسى ابن مريم، والتي تواكب معه الميلاد المعجز ليحيى بن زكريا، الذي ذكره القرآن في بداية السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾، ثم تلى ذلك ذكر رحمة أخرى بعبد آخر من عباده: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم:١٦].

ونعود إلى قصة مريم التي بدأنا بها هذه القراءة عندما دخل عليها زكريا المحراب ووجد عندها رزقًا ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فتنبه زكريا ودعا ربه فكانت قصة يحيى وتعود السورة بنا إلى مريم فما ذكرت قصة زكريا ويحيى إلا تمهيدًا لقصة مريم.



﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ هو القرآن الذي هو من مثل الحروف ك، هـ، ي، ع، ص. ولكن ذِكْرَه ليس كأيٍّ ذكر، فهو الحق، وهو البيان الواضح.

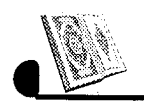
و﴿مَرْيَمَ﴾ هي مريم ابنة عمران، وقصة مريم وعيسى وموضع النصارى ورد في القرآن في أكثر من موضع..

ولكن تفصيل قصة حمل مريم وميلاد عيسى وردت في سورة آل عمران، وسورة مريم، وسورة الأنبياء، ولمحات في سورة التحريم وفي سورة النساء.

ونلاحظ أنها ذكرت في آل عمران، ومريم، والأنبياء بعد قصة زكريا مباشرة وميلاد يحيى؛ لتلازمهم، ولأن الأولى كانت تمهيدًا للثانية.

في سورة آل عمران: بعد ذكر ميلادها، وكفالة زكريا لها. ودعائه، وميلاد يحيى عليهم السلام: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

والسورة اسمها مريم، وهي المرأة الوحيدة المذكور اسمها في القرآن؛ وذلك لأنها فذَّة ومفردة بين نساء العالم بشيء لا يحدث ولن يحدث إلا لها.. فهو أمر لن يتكرر، ولا تستطيع امرأة أن تدعيه.



لقد عوذتها أمها من الشيطان وهي حامل بها.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا مَوْلُودٌ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا**» ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[١].

مس الشيطان للإنسان:

وهذه بداية تسلط الشيطان على الإنسان؛ لأن الشيطان يَعْتَبِر أن الميلاد بداية جديدة للخلق؛ حيث إنه فشل مع آدم، فيحاول مع كل بنيه من البداية.

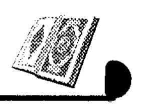
واهتمام الشيطان بالبداية واضح؛ لأن أقلَّ انحراف في بداية أي عمل يؤدِّي إلى فجوة عظيمة مع الوقت، ولذلك نجد الرسول ﷺ يوصي بالدعاء في أول ليلة للزواج، أو إذا اشترى خادمًا، أو إذا اشترى أيَّ شيء جديد: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ**»[٢].

وقبل الجماع وهو بداية الولد «**بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ**

---

(١) رواه البخاري ح (٣٤٣١).

(٢) رواه أبو داود (١/ ٦٥٥) رقم (٢١٦٠) وحسنه الألباني، وابن ماجه (٢/ ٧٥٧) رقم (٢٢٥٢).



وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»[1].

وعند الولادة يكون الأذان في الأذن اليمنى، والإقامة في اليسرى.. ونحن نعلم تأثير الأذان على الشيطان.

اصطفاء مريم:

وقد قالت الملائكة لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وقد اصطفى الله مريم مرتين:

«**الأولى**»: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] «**والثانية**»: أنه سبحانه اصطفاها على نساء العالمين وجعلها أُمًّا لعيسى، وقالوا: إنها أفضل نساء عالمها. وقالوا: أفضل نساء العالمين قبلها وبعدها. وقالوا: إنها نبية؛ لأن الله أوحى إليها، وأيضًا سارة، وأم موسى، ولكن الإجماع أنه لا نبي من النساء ولا الجن.

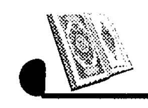
الصديقة:

وقد أخبر الله عن صفتها (إنها صديقة):

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ

---

(١) رواه البخاري بأرقام (١٤١)، (٣٠٩٨)، (٣١٠٩)، (٤٨٧٠)، (٦٠٢٥)، (٦٩٦١)، ومسلم في النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).



وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»(١).

عن عليٍّ رضي الله عنه يقول سمعت النبي ﷺ يقول: «**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ**»(٢).

ووردت أحاديث صحيحة أن أفضل نساء أهل الجنة أو خير نساء العالمين أربعة على الترتيب مريم ثم خديجة ثم فاطمة ثم آسية.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**»(٣).

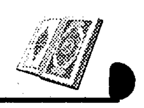
ونلاحظ أن كُلًّا منهن كفلت نبيًّا؛ مريم أم عيسى، وآسية رعت موسى، وخديجة زوجة محمد ﷺ وفاطمة ابنة محمد ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٠)، (٣٢٥٠)، (٣٥٥٨)، (٥١٠٢)، ومسلم، ح(٢٤٣١).

(٢) رواه البخاري ح (٣٢٤٩) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضل خديجة رضي الله عنها (٢٤٣٠).

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٣٥) (١٢٤١٤)، وابن حبان (١٥/ ٤٦٤) (٧٠٠٣) وقال الأرنؤوط: وإسناده صحيح، والترمذي (٥/ ٧٠٣) (٣٨٧٨).



أما عائشة فهي ذات فضل على النساء كما قال النبي ﷺ: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»(١).

بالعبادة ترتقي:

ويأتي أمر الله لمريم بأن تكمل عبادتها؛ لأن الأمر المُقْدِمَةُ عليه عظيم: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

إن الزاد الرباني والحصيلة الروحية التي يحصل عليها الإنسان بعبادته لربه من القوة لأنْ تجعله يتقبل أيَّ شيء، ويسير في طريقه بأقدام ثابتة.

وبدأت مريم في تنفيذ أمر ربِّها بكل دقَّة وجدِّيَّة. ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦].

كانت عابدة في المحراب، فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة تجلس في معبدها بعيدًا عن الناس حتى أهلها، تعبد ربَّها في أنس وسعة.

واتخذت جهة شرق بيت المقدس مكانًا لعبادتها(٢).

وذات يوم حدث لها ما جعلها تتوارى من قومها ومن زملائها في المحراب: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]؛ **ذلك**

---

(١) رواه البخاري ح(٥٤١٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١).

(٢) وقد أورد القرطبي في تفسيره ٥/٤٢٦١ «إنما خص المكان بالمشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق حيث تطلع منها الأنوار» والله أعلم.



لتقضي بعض شؤونها كفتاة، وفجأة تجد أمامها شابًّا: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فانخلع قلبها، ولملمت نفسها وجمعت حاجاتها، ولم تجد ما يعيذُها إلا ربُّها فصرخت: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

علمت مريم أن التُّقَى ذو نهي على صاحبه، يمنعه من أي شرٍّ[١]، فقالت له إن كنت تقيًا مؤمنًا فاعلم حق الله وابتعد.

لقد سألت نفسها من هذا الشاب الذي فاجأها في خلوتها الخاصة، وواضح أن الملائكة كانت تأتي مريم في غير الصورة الإنسية وأنها أول مرة يتمثل لها الملاك بشرًا سويًا.

وأسرع الضيف الغريب بالإجابة: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، وتَسْرِي الراحة في نفس مريم؛ إذًا فأنت ملاك في شكل إنسان، وكم جاءتها الملائكة برزق ربها، وكم قالوا لها: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾ [آل عمران: ٤٣].

ولكن لا يتركها الملك في راحتها تلك طويلًا، ولا تمكث الطمأنينة إلا لحظة، وإذا بالملك يفجر مفاجئة تهز كل كيانها يقول لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، ويعود إليها الفزع من

---

(١) وردت قصة أنه كان هناك شاب مجرم اسمه تقي فظنته مريم هو، فقالت هذا... وهي قصة بلا سند يعتمد عليه، ولا تليق بأسلوب القرآن الذي لا يهتم بذكر الأسماء غالبًا.



جديد، فتاة صغيرة غاره في مكان خال وشاب يقول لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾!!

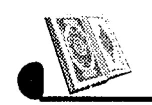
وهنا تدفعه بحياء وخجل، ولكن في قوّة وعزم ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

قد قُرئت: (ليهب لك) وهي صحيحة، أي ربك أرسلني ليخبرك أنه سيهب لك غلامًا، فكان ردها المتعجب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي لم أتزوج، والمسُّ هنا كناية عن العلاقة بين زوجين، وهو كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] ولن أكون كذلك يومًا ما.

وهنا تخرج الحقيقة الإلهية من فم جبريل أن الأمر ليس بهذا الهول، وليس بتلك الصعوبة، فنحن لم نراه كذلك إلا لبُعْده عنا، ولكن بالنظر إلى الفاعل: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١].

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وأي أمر على الله هين، فما هذا في خلق السماوات والأرض؟ وما هذا في خلق الجبال؟ وما هذا في خلق الشمس والقمر؟ وما هذا في كل خلق من خلق الله؟ والكل على الله هيِّن.



ولكن إذا سألت مريم: ولماذا؟ يجيب الله تعالى مبينًا سببين لمجيء هذا المولود العجيب:

١ - ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

آية تذكر بالخلق الأول خلق آدم وحواء: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعيسى وحده ليس الآية وإنما أمه أيضًا آية ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

آية لن تتكرَّر مرَّة أخرى لأن نواميس الله وسننه هي الأصل، آية بين يدي انتهاء النبوة في بني إسرائيل، والتبشير بانتقالها لبني إسماعيل، وقدوم النبي الخاتم، يقول يوحنا على لسان عيسى:

«لكن أقول لكم الحق.. إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم البارقليط ولكن إذا ذهبت أرسل إليكم».

والبارقليط الذي له الحمد الكثير، أي: الأحمد ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾..

٢ - ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١].

فعيسى جاء رحمة للناس وخاصة في عهده، لقد جاء على

دين قد ضاق بالناس حتى إن خطوات الطهارة كانت حوالي ٢٧ خطوة، والأحكام عجيبة عجيبة، والعقيدة طلاسم، والكهنوت جبروت؛ ولذلك كان بين يدي دعوة عيسى قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

قالوا: هذا من كلام الله، أنه قضي الأمر. وقالوا: إنه من كلام جبريل وتعني الآية أن الأمر قد انتهى ولا جدال فيه.

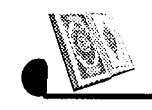
﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم:٢٢]

كيف حملت مريم؟

في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وفي سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فهل الروح هنا هو الروح في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].



قالوا: إن الروح في مريم هو جبريل، أما في التحريم فهي الروح التي نفخها الله في التراب فكانت آدم.

أيًا كان الأمر، فلم يَرْدِ نصٌّ يَقْطَع في ذلك، ولكنا نؤمن بالقرآن على ظاهره فهي روح أرسلت لها، وهي روح نفخت فيها، والاثنان من الله فإن كان الأمر من الله فلا نسأل كيف.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] هكذا كن فيكون.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢].

حملت به في بطنها كأي امرأة عادية(*)، وكان ذلك بعد ستة أشهر من حمل أختها (أو خالتها) بيحيى بن زكريا، ومن رحمة الله على آل عمران أن جاءت قصة حمل يحيى ملازمة لحمل عيسى، وذهبت مريم لتخبر أهلها بما حدث- زكريا وزوجته وخطيبها يوسف النجار- فلم يمرَّ الأمر بسهولة عليهم، وخاصَّة على يوسف خطيبها، الذي كان يحترمها ويثق فيها، ذهب إليها وقال لها: هل يكون شجر بغير حبٍّ؟ أو زرع بغير بذر أو ولد بغير أب؟ قالت: نعم، إن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهم بغير حبٍّ ولا بذر، وخلق آدم بغير أب ولا أم.

(*) يرى البعض أنها حملته وولدته في يوم أو أيام وهذا مخالف لطبيعة البشر ولسير الأحداث ولم يرد به نص صحيح.

جاء في الإنجيل أن يوسف فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلًا: «يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأن الذي حُبِلَ به فيها هو من الروح القدس فستلد ابنًا وندعو اسمه يسوع.. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم»(١). ويسوع هو الاسم اليوناني من الاسم العبري «يشوع» الذي يعني الرب يخلص.

وحدث بين العلماء نقاش حول هل كان حملها ٩ أشهر؟ أم حملته ووضعته مباشرة؟

فالرأي الثاني لابن عباس، حيث قال: كما حملته نبذته، والفاء تفيد التعقيب. ولكن الرأي الأول للجمهور ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢].

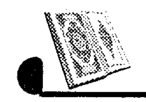
﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

قالوا: هربت بحملها إلى مكان بعيد مخافة التهمة فقد أخفت الأمر على قومها غير أهلها القريبين.

ولتدبير الله لها وقد أعلنت الحكومة الرومانية التي كانت تحكم فلسطين أن كل مواطن عليه أن يعود إلى قريته؛ لأنها ستقوم بالتعداد العام؛ فأخذ يوسف النجار مريم الحامل من مدينة الناصرة

---

(١) (متي: ١-٢٠-٢٢).



التي كانوا يعيشون فيها إلى مدينة بيت لحم حيث موضع ميلادهم على بعد حوالي ١٠ كم إلى الشمال. يقول لوقا: (ليكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى. وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وفطمته وأضجعته في المذود؛ إذ لم يكن لها موضع في المنزل)(١).

وكانت هذه فرصة لتتخفى مريم بحملها من الذين يعرفونها على بعد حوالي ١٥٠ كيلو متر. وهذا هو المكان القصي الذي أخبر به القرآن ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

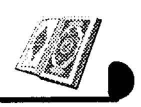
﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]

ونلاحظ في معنى ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أي: ألجأها واضطرها، أي جاءها فجأة، وجاءها مصاحب بآلامه المعتادة فجلست تحت جذع النخلة.

ها هي ذي مريم الشابة الصغيرة تواجه الآلام الجسدية مع الآلام النفسية، ويفاجئها المخاض ويلجئها إلى جذع النخلة تستند عليه وتتشبث به من آلام الولادة، وهي وحيدة عذراء في أوَّل ولادة لها، لا تعرف شيئًا، ولا مُعِينَ لها في شيء، لا أم معها ولا أخت ولا خالة ولا عمه ولا جارة بجانب شعورها الداخلي بعظم ما

---

(١) (لوقا ٢: ١-٧)



هي فيه وما ستقدم عليه من اتهام قومها لها وهي الشريفة العفيفة الطاهرة ها هي مريم تعاني كل ذلك فتصرخ في نفسها.

﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

هل يجوز تمني الموت؟

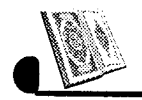
ورد النهي عن تمني الموت في أكثر من حديث رسول الله ﷺ: عن النضر بن أنس قال: قال أنس رضي الله عنه: لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ**»(١) لتمنَّيت.

قَالَ: «**دَخلْنَا عَلَى خَبَّابٍ نَعُودُهُ وَقَدِ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ فَقَالَ إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيَا وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إِلَّا التُّرَابَ وَلَوْلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ، ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهْوَ يَبْنِي حَائِطاً لَهُ فَقَالَ إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُوجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ**»(٢).

وخباب بن الأرتّ كان صانعًا للسيوف، وأصله أنه كان عبدًا لامرأة كافرة اسمها أم أنمار، ولقد لاقى منها أشد العذاب بعد

(١) رواه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب كراهة تمني الموت لضرر رقم(٢٦٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٣٤٨)، (٥٩٨٩)، (٦٠٦٦)، (٦٠٦٧) وأحمد في مسنده(٥/ ١٠٩) (٢١٠٩٧) والطبراني في الكبير (٤/ ٦١) (٣٦٣٢).



إسلامه فكانوا يلصقون ظهره العاري بالحجارة المحماة حتى ذهب لحمه، وجاء يومًا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسط برده في ظل الكعبة، وقال له: يا رسول الله، ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا فصبره رسول الله ﷺ وذكره بمن تحمل من قبلهم في سبيل الله.

ومرَّ عليه رسول الله ﷺ يومًا، وقد وضعت أم أنمار الحديد المحمي على رأسه، فرفع يده «**اللَّهُمَّ أَنْصُرْ خَبَّابًا**»(١). وبعد أيام مرضت أم أنمار بسعار جعلها تعوي كالكلب، وقال الأطباء أن لا علاج لها إلا أن يكوى رأسها بالنار.

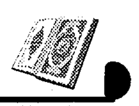
ثم تحرَّر خبَّاب، واستثمر وقته في الدعوة والتعليم، وبرع في القرآن، وكان عبد الله بن مسعود الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»(٢). يعتبر خبابًا مرجعًا له في القرآن.

وكان مع فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد يعلمهما القرآن عندما جاءهم عمر لما علم بإسلام أخته وزوجها وكان لم يسلم بعد وعلم عنه قوته وبطشه، فاختبأ منه خباب، وعندما رأى من عمر رغبة في الإسلام خرج من مخبئه

---

(١) أسد الغابة (١/ ٣١٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٤٤٥) (٤٢٥٥)، وابن ماجه (١/ ٤٩) (١٣٨)، وابن حبان (١٥/ ٥٤٢) (٧٠٦٦) قال الأرنؤوط: صحيح إسناده حسن.



وبشرَّه أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ خَاصَّةً**»(١).

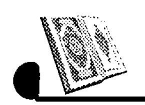
وشهد خباب جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ.

كان راتبه من بيت المال كبيرًا بعد أن فتح الله على المسلمين، فبنى بيتًا في الكوفة.. وكان يضع ماله في مكان يعرفه رواده، حيث يدخل مَنْ وقعت به حاجة ليأخذ منه.

وفي مرض موته ردَّد ما ورد في حديث الكيِّ.. قالوا له: أبشر يا أبا عبد الله، فإنك ملاقٍ إخوانك غدًا. فبكى وقال: (أما انه ليس بي جزع، ولكنكم ذكرتموني أقوامًا وإخوانًا مضَوْا بأجورهم كلها لم ينالوا من الدنيا شيئًا، وإنا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما لم نجد له موضعًا إلا التراب؛ وأشار إلى بيته، ثم قال عن أمواله: (والله ما شددت عليها من خيط، ولا منعتها من سائل) ثم التفت إلى كفنه وقال وهو يبكي: انظروا هذا كفني- متعجبًا من ترفه- لكن حمزة عم رسول الله ﷺ لم يوجد له كفن يوم استشهد إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه.

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٣٩) (١٠٥) قال الألباني: صحيح دون قوله: (خاصة) والحاكم في المستدرك(٣/ ٨٩) (٤٤٨٤) ولاظ أن هذه الروايه التي تذكر عمر هي الصحيحة.. أما الرواية المشهوره أنه ذكر وأحد العمرين: عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام (أبو جهل) فقد ضعفها بعض العلماء.



ومات عام ٣٧هـ، ومر الإمام علي على قبره فقال: رحم الله خبابًا لقد أسلم راغبًا وهاجر طائعًا وعاش مجاهدًا.

هذا هو خباب، فلماذا تمنَّى الموت؟

الإجابة واضحة:

إنه يُعَزِّي نفسه على ألم الكيِّ بأن هناك بلاء أكبر، وهو هذه الدنيا التي تريد أن تأخذ منه أجره، ولكن تذكر نهي الرسول ﷺ عن تمنِّي الموت فامتنع.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي**»(١).

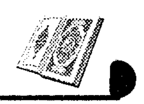
وقالوا: إن تمنِّي الموت اعتراض على القدر، وهو مناف للإيمان، وإن الصيغة في حديث أنس نوع من التفويض والتسليم لله.

وقالوا: إن الحكمة من عدم الدعاء على النفس بالموت ما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥٣٤٧)، وأحمد (٣/ ٢٤٧) (١٣٦٠٤)، وابن حبان (٣/ ٢٥٠) (٩٦٩)، والبيهقي (٣/ ٣٧٧) (٦٣٥٧)، وأبو يعلى (٦/ ٩) (٣٢٢٧).

(٢) رواه البخاري ح (٧٢٣٥) ويستعتب أى: يتوب ويعود إلى الله، والنسائي (٤/ ٢) (١٨١٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧٧) (٦٣٥٥).



وعن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذَّكرنا ورقَّقنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: يا ليتني مِتُّ. فقال النبي ﷺ: «**يَا سَعْدُ، أعندي تتمنَّى الموت**». فَرَدد ذلك ثلاث مرَّات ثم قال: «**يَا سَعْدُ، إِنْ كُنْتَ خُلِقْتَ لِلْجَنَّةِ فَمَا طَالَ عُمرُكَ أَوْ حَسُنَ مِنْ عَمَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»[1].

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**»[2].

هذه الأحاديث تبين أن الحكمة من النهي عن تمني الموت:

١- أن أصل الإيمان ينبع بالخير.

٢- أن المؤمن إما يزداد خيرًا أو يتوب عن شرٍّ.

٣- أن كفة الخير دائمًا راجحة في صالح المؤمن.

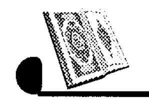
٤- أن بالموت تنقطع الأعمال الذي تزداد بها الدرجات في الجنة.

ولكن هل هذا النهي على إطلاقه؟ قال العلماء: لا، هذا متعلِّق بالضرِّ في الدنيا.

---

(١) رواه أحمد ح (٢١٧٩٠).

(٢) رواه أحمد ح(٢٦٨٢).



حتى إن حديث أنس ورد بصيغة تخصص الضرَّ بالضرِّ الدنيوي.

أما إذا كان الضرُّ في الدين، أي: فتنة في الدين، فيجوز تمنى الموت هنا، وهذا أول موقع من ثلاثة مواقع يجوز فيها تمني الموت:

١- تمني الموت في سبيل الله وهي الشهادة.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقاً أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبْهُ»**(١).

عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ سَأَلَ اللهَ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِهِ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ أَعْطَاهُ اللهُ أَجْرَ الشَّهِيدِ»**(٢).

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ سَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ الشَّهَادَةَ بِصِدقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**(٣).

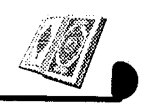
عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال سمعت النبي ﷺ يقول: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لولا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ**

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٨).

(٢) رواه الترمذي، ح(١٦٥٤).

(٣) رواه النسائي، ح (٣١٦٢).



يَتخَلَّفُوا عَنِّي وَلا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلَ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحيا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»[١].

وسمعت حفصة بنت عمر أبيها يدعو يقول: (اللهم قتلًا في سبيلك، ووفاة ببلد نبيك).

٢- عند نهاية الأجل بحسن الخاتمة:

عن عمر أنه كان يدعو: «اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي وَضَعُفَتْ قُوَّتِي وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي. فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلَا مُفَرِّطٍ»[٢].

وكان دعاء يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ودعاء سليمان: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ودعاء السحرة عندما تأكّدوا من الموت على يد فرعون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

---

(١) رواه البخاري، ح (٢٧٩٧).

(٢) في الموطأ (رواية محمد بن الحسن)، (٣/ ٥٨) (٦٩٣).



ثم هذا دليل المسألة من السنة: عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال سمعت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ وهو مستند إليَّ (أي: في لحظة وفاته ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأعلى**»[1].

٣- عنـد الفتنـة في الديـن:

وهذا ما أشرنا إليه من قبل فكان رسول الله ﷺ يُعَلِّم معاذًا أن يقول دبر كل صلاة: «**وَإِذَا أَرَدْتَ فِي النَّاسِ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غيْرَ مَفْتُونٍ**»[2].

وورد أن الصحابي عيسى الغفاري قال يومًا: «**يَا طَاعُونُ خُذْنِي**»[3]. فَقَالَ لَهُ عُلَيْمٌ: لِمَا تَقُولُ هَذَا؟ أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ**»؟ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**بَادِرُوا بِالْمَوْتِ سِتًّا**»... وذكر إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم إلخ.

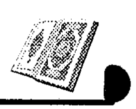
دعا علي بن أبي طالب في آخر خلافته وقد ازداد الأمر شدة، وأحرقت الفتنة الكثير: (اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني).

---

(١) رواه البخاري، ح (٥٦٧٤).

(٢) الموطأ (١/ ٢١٨) (٥٠٨)

(٣) رواه أحمد (٣/ ٤٩٤) (١٦٠٨٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٠٠) (٥٨٧١)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢١١) (٣١٦٢).



وقال البخاري: (اللهم توفَّني إليك).

ويجوز الدعاء بالموت في آخر الزمان عندما تشتدُّ الفتن:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِى مَكَانَهُ»**[1].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ»**[2].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ دعاء الكرب، يدعوه المؤمن إذا ضاقت عليه الدنيا يقول ﷺ: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ»**[3].

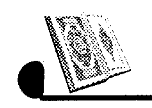
ودعاء الغمِّ الذي دعاه سيدنا يونس، ووعد الله المؤمنين بكشف الغمِّ به: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَـٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ الآية.

---

(١) رواه البخاري، ح(٧١١٥).

(٢) رواه مسلم، ح(١٥٧).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٥)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب دعاء الكرب رقم (٢٧٣٠).



يا ليتني مت...

وكان هذا هو حال مريم، عندما اشتدَّ عليها الأمر وشعرت أن العار قد يلحقها، وأنها قد يتهم دينها بذلك المولود، بل ويتهم الدين كله والأحبار بسببها فقالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣]، أي: لم أكن شيئًا يُذْكَرُ.

لقد تقبلت الأمر من قبل عندما أبلغها الملاك بشيء من التعجب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠] أما وقد أصبح أمرًا واقعًا وها هي آلام الوضع تبشر بقدوم الغلام فالحقيقة كلها أصبحت شاخصة لا تستطيع مدافعتها.

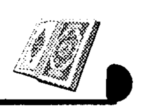
﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤]

وهنا يأتي التثبيت الإلهي: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤]، وقرئت: (مَن تحتها) بفتح الميم من (من) ولذلك كان لها تفسيران:

١- أنه عيسى ابنها فهو مَنْ تحتها.

٢- أنه جبريل الملك مِن أسفل الوادي.

ولم يتكلم عيسى إلا مرة واحدة ولم يرجِّح ابن كثير أنه عيسى بل جبريل، واختاره سيد قطب والشعراوي وهو الأرجح.



﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤- ٢٦].

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لا تحزني فإن الله معك.. وهي مسحة حانية على أساها. وعندما ننظر إلى حزن مريم نجده لأسباب متعددة.. أنها بعيدة عن أهلها وفي حالة ولادة وليس معها من يساندها أو يساعدها أو حتى يقدم لها ما يعينها من طعام وشراب فكان المدد الإلهي تعويضًا عن جميع أسباب الحزن..

أولًا هذا الوليد يكلمها ويناديها ويؤنسها، وهي فرحة ما بعدها فرحة فالأم تستشعر قمة السعادة عندما تسمع بكاء طفلها فما بالكم بمن تسمع كلامه(*).. ثم ها هو الطعام وها هو الشراب..

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ١٥].

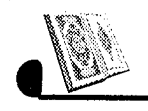
وهكذا نجد مريم نفسها أمام معجزات مؤنسة متتالية:

١- كلام عيسى المولود.

٢- سريان جدول ماء عذب وتدفقه تحتها، وقد قيل: إنه لم يكن موجودًا.

٣- لم يكن وقت إثمار النخل، ولكنه أثمر رطبًا جنيًّا.

(*) على رأي من قال أن الذي كلمها هو عيسى.



ولقد وقفت طويلًا متدبرًا لأجد الحكمة من التفات النصِّ القرآني عن مصيبتها التي تمنَّت الموت من أجلها إلى توجيهها إلى الأكل والشرب، ورعاية صحتها ووليدها، وبالتدبر نجد الرحمة الإلهية تهون عليها ما تفكر فيه وتلفت نظرها أن تنشغل كأي أم بحالة الولادة التي هي فيها وبوليدها الرضيع أما غير ذلك فهو ليس لها ولا عليها أن تنشغل به..

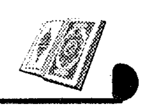
٤- مجرد هزِّها للجذع الذي لا يهتزُّ، وهي المرأة الضعيفة النفساء ويتساقط الرطب.

وكل هذه دلالات على طلاقة القدرة الإلهية وإلغاء جميع الأسباب أمامها: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فيعود القلب إلى الفاعل الأول سبحانه وتعالى، وتدرك أن كل ما حدث هو من الله، والله كفيل بحفظها.

وهذا اطمئنان لمريم، وإشعار لها بأن الله معها لن يتركها بعد أن حرَّك الكون كله من أجلها.

التمر والماء والنفاس:

تحتوي ثمرة النخيل على مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة وتقليل النزيف، كما أثبت العلم الحديث أهمية التمر للنفساء، ويحتوي الرطب نسبة عالية من السكر البسيط سهل الهضم مثل الجلوكوز، والماء مع الجلوكوز هو المحلول الذي



يُعْطَى للوالدة وريديًا أو بالفم، فهذا محلول بتوصية ربانية.

كما أن الرطب يخفض ضغط الدم مؤقتًا وهو مفيد لتقليل النزيف.

أما النخلة فقد شبهها الرسول ﷺ بالمؤمن، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**لَا يَجُوعُ أَهْلُ بَيْتٍ عِنْدَهُمُ التَّمْرُ**»[١] وكان ﷺ يتعامل معه بطرق مختلفة؛ ليجعله قوام الطعام، فكان يأكله بالثريد وبالخبز ومفردًا أو مع القثَّاء.

عن عبد الله بن جعفر: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَأْكُلُ الْقُثَّاءَ بِالرُّطَبِ**»[٢].

يقول ابن القيم معلقًا على هذا التركيب (القثاء والرطب): «وفي كل منهما صلاح للآخر، وهذا أصل حفظ الصحة»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أرادت أمي أن تسمنني لدخولي على رسول الله ﷺ فلم أقبل عليها بشيء مما تريد حتى أطعمتني القثاء بالرطب، فسمنت عليه كأحسن السمن.

ولا تمرُّ آية من آيات النعيم في القرآن- الخاصة بالزرع- إلا

---

(١) رواه مسلم (٣/١٦١٨) (٢٠٤٦)، والدارمي (٢/١٤١) وهو في الجامع الصغير وزيادته (١٣٥٨٥).

(٢) رواه مسلم (٣/١٦١٦) (٢٠٤٣)، وأحمد (١/٢٠٣) (١٧٤١).

(٣) زاد المعاد ابن القيم ج٤ .



ويذكر فيها النخيل، وأيضًا لا تذكر النخلة إلا موصوفة بالجنة.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد: ٤].

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وللتمر علاقة بالصيام معروفة: عن أنس بن مالك قال: «**كان النبي ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ فَتَمَرَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ**»[١].

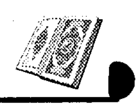
حيث إنه أول غذاء تقابله المعدة الفارغة، وبه نسبة عالية من السكريات المفيدة في عودة نشاطها لتلقي طعام الإفطار كما أنه يساعد الجهاز الهضمي للتخلص من الفضلات؛ فيقلل اضطراباته أثناء الصيام.

والتمر أيضًا استخدمه رسول الله ﷺ في تحنيك الأطفال عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: «**وُلِدَ لِي غُلَامٌ، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَمَّاهُ إِبْرَاهِيمَ، فَحَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ، وَدَعَا لَهُ بِالْبَرَكَةِ، وَدَفَعَهُ إِلَيَّ**»[٢].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٦٤) (١٢٦٩٨)، وأبو داود (١/ ٧١٩) (٢٣٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥١٥٠)، (٥٨٤٥)، ومسلم في الآداب باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته رقم (٢١٤٥).



وكتب قيصر إلى عمر بن الخطاب:

أخبرك أن رسلي أتتني من قِبَلِكَ فزعموا أن عندكم شجرة ليست بخليقة لشيء من الخير، تخرج مثل آذان الحمير فتتشقق مثل اللؤلؤ، ثم تخضر فتكون الزمرد الأخضر، ثم تحمر فتكون مثل الياقوت الأحمر، ثم تينع فتنضج فتكون كأطيب فالوزج أكلها ثم تيبس فتكون عصمة للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن تكن رسلي صدقتني فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة.

فكتب إليه عمر بن الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الروم إن رسلك قد صدقوك، هذه الشجرة عندنا، وهي الشجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بابنها عيسى، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهًا من دون الله، فإن الله قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1] [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ﴾ [مريم: ٢٦]

قرة العين الراحة والاستقرار: يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: ٩].

(١) وواضح استغلال عمر للموقف لدعوة ملك الروم أن يتخلّى عن معتقده الخاطئ والحكاية ذكرها ابن كثير في تفسيره.



عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[1].

وهي من أعظم نعيم الجنة.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وبذلك اجتمع لمريم كل وسائل إزالة الأحزان.. أكلت وشربت واستقرت نفسيًا واطمأنت.

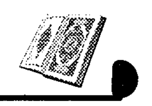
لماذا أعطاها في المحراب رزقًا؟

تدبرت في تلك المفارقة العجيبة بين أن يعطيها في المحراب رزقًا سهلًا وهي قوية تستطيع السعي.. وأن يأمرها هنا أن تهزَّ جذع النخلة وهي الضعيفة بعد ولادتها، ولم يقنعني ما قيل أنها كانت في الأولى متعلقة بحب الله، ولكن تعلق قلبها بحب عيسى.. فوكلها إلى الأسباب.

إنما من الواضح أن ضمير مريم كان ولا يزال يبحث عن الأسباب في ولادتها، ويذهب إلى الأسباب المباشرة أنه يجب أن يكون رجل وامرأة ليكون الولد، فيأمرها الله تعالى أن تهز جذع

---

(١) رواه النسائي، ح (٣٩٤٠) وقال الألباني: صحيح، والحاكم في المستدرك(٢/ ١٧٤) (٢٦٧٦)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٥٤).



النخلة، وهي الضعيفة، والجذع لا تقوى حتى الرياح على هزة، فيتساقط الرطب لمجرد استجابتها للأمر. . فهل تساقط الرطب بسبب الهز، أم بأمر من الله؟ فيزداد اطمئنان مريم أن الذي أسقط لها الرطب وجناه لها بلا سبب ولا وسيلة هو سبحانه القادر أن يهبها الغلام بدون أسباب.

يقول الشاعر:

ألـم تـرَ أنَّ الـلـهَ أوحَـى لـمـريـم
وهُـزِّي إلـيـكِ الـجِـذْعَ يـسَّـاقـطِ الـرطـب
ولـو شـاء أن تجـنـيـه مـن غـيـر هَـزِّهـا
جَـنَـتْـهُ ولـكـن كـل شـيءٍ لـه سـبـب

> ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]

ماذا بقى من حزنك؟ نعم. . . مشكلة ذلك الوليد هي ليست عليك ولن تتكفلي بها فإن جواب ما يكره السكوت، وبعد ما رأيت من رعاية الله لك كل ما عليك أن تصمتي وتدعي القدرة تعمل.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ مهما رأيت ﴿مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾.



فالتزمي بالصمت ولا تتحدثي والصوم عن الكلام منهي عنه في شريعتنا، ولكن هنا لا مجال للكلام البشري فالمعجزة لا تحتاج لكثرة شرح وجدال.

هذه امرأة علمت أن أحدًا لن يصدِّقها، أنها حملت من غير زوج، وأنتم يا بني إسرائيل لن يُجْدِي معكم الكلام، فالحديث معكم بعد ذلك أكبر من قدرات البشر.

ونلاحظ المشابهة لموقف زكريا حيث الصمت عند المعجزة.

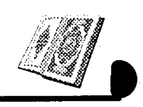
﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾. [آل عمران: ٤١].

﴿فَقُولِيٓ﴾ يمكن أن تكون قولي في نفسك، وهنا لم يقل: تكلمي.

القول قد يكون بغير كلام فهو تقرير في أعماق النفس، قد يخرج على اللسان على هيئة كلام أولا ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ﴾ [الملك: ١٣].

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وقد تكون الجملة المسموح لها به هي ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.



﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾
[مريم: ٢٧، ٢٨]

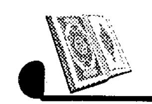
﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أخفت الحمل عنهم. ولكنها بعد تلك الدلالات والمعجزات والمؤيدات الربانية ها هي قوية صامدة تواجه قومها فتأتيهم في اجتماعهم تحمل طفلها على ذراعيها.. ويحدث ما كانت تتوقع لقد ثار القوم فهذه الجريمة كانت من أشنع الجرائم بين بني إسرائيل ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾.. يقطع.. ويفري لقد جئت شيئًا كاذبًا وجرمًا عظيمًا وبدأ الغضب يخرج على لسانهم هادئًا أول الأمر ثم عنيفًا بعد ذلك ومما زاد حنقهم ودفعهم إلى الاتهام الصريح ذلك الصمت الذي تعلقت به فبدأوا في الإساءة إليها .

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ .

حدث جدال حول هذه الآية فبين مريم وهارون عشرات السنين فكيف تكون أخته؟

هناك أقوال صحيحة مثل أنها من نسل هارون، مثل قولك: يا أخا العرب. أو يا شبيهة هارون، أو كان هارون رجلًا صالحًا في عهدها فنسبت بصلاحها إليه.

وأيضًا وردت غرائب، مثل: كان يوجد رجل فاسد في عهدها



اسمه هارون، أو أنها أخت هارون التي بصرت بموسى عن جنب.

والعجيب أن السيدة عائشة أيَّدت هذا الرأي الأخير ولكنها رجعت عنه إلى الحقيقة بعد حوار مع كعب الأحبار قال: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ ليس هارون أخو موسى. فقالت عائشة: كذبت. قال: يا أم المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قال فهو أعلم وأخبر وإلا فإني أجد بينهما كذا وكذا.

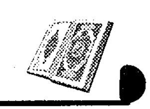
وأيضًا جادل النصارى فيه:

عن المغيرة بن شعبة قال لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سلَّم سألته عن ذلك فقال: «**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**»(١).

الموضوع واضح والسبب في هذا التصور أنه ورد: أنه بعد خروج بني إسرائيل من البحر وغرق فرعون قامت مريم ابنة عمران بين يدي موسى وهارون تدقُّ بالدف، وليست هي مريم العذراء أم عيسى، إنما مريم أخرى وعمران آخر.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨].

(١) رواه مسلم، ح (٢١٣٥)، والترمذي (٥/ ٣١٥) (٣١٥٥).



لم يرد إلى ذهنهم أي محاولة للبراءة. . . بل الاتهام المباشر المصحوب بالتقريع. . .يا أخت هارون في العبادة والتقوى. . يا ابنة الرجل الصالح الذي لم يكن في يوم سيء. . يا ابنة المرأة الصالحة التي لم تكن بغيًا ماذا دهاك وما هذا الذي جئت به؟!.

ولم تجد ما تفعله أمام السخرية والتقريع ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]، فاشتعل غضبهم ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

هي كانت تعلم أنه دليل براءتها فقد تكلم من قبل وناداها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ وشاركها بكلامه فرحة وصوله إلى الدنيا وقدم إليها الطعام والشراب وأقر عينيها بالسكينة والسلامة، أما هم فقد استبعدوا أن يتكلم طفل في مهده واستبعدوا أن يكلموه أو يسألوه.

وهنا تحدث المعجزة التي تخرس معها الأفواه، لقد تكلم الوليد في مهده:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾
[مريم: ٣٠، ٣١]

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ لم يقال: إني ابن الله. ولم يقال إني إله. ولم يقل: إني ثالث ثلاثة آلهة. قال: إني عبد الله وهي إشارة لنفي ما

سيحدث في المستقبل من الافتراء عليه وكأنه يقول لهم لا تستمعوا إلى من يقول غير ذلك أو يدعى عليَّ مقامًا آخر ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، قالوا قضى أن يأتيني الكتاب لقد تم الأمر وما خلقني الله بهذه الطريقة وما جاء بي بهذه الكيفية المعجزة إلا لسببين أساسيين. . . أن يأتيني الكتاب وأن يجعلني نبيًّا:

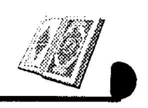
﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، قالوا: من بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، قالوا: لا تجد أحدًا عاقًّا بوالديه إلا وجدته جبّارًا شقيًّا.

وهكذا تتضح ملامح دعوة عيسى في قومه في الصلاة والزكاة والبر والرحمة وفي الآي إشارة إلى براءة أمه مريم مما يحاول اليهود إلصاقه بها. .

والعجيب أن هذه الآية هي أول ما أنزل في براءة مريم بعد حوالي ستمائة عام فقد استمر اليهود يتهمونها بالزنا إلى أن جاء القرآن ووثق براءتها من السماء.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وهي أعلام ثلاثة في حياة الإنسان يوم ميلاده، ويوم موته، ويوم بعثه



يوم القيامة . . وقد صبغ الله أيام عيسى الثلاثة بالسلام، كما صبغ أيام يحيى قرينه في النبوة أيضًا بالسلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

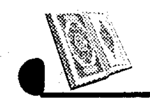
وتتميز أيام عيسى عن غيره من الخلق . .

١- (يوم ولدت) كان معجزة كبرى هزَّت أركان المجتمع حوله، بل ما زال صداها إلى اليوم . . ولقد مَرَّ اليوم بسلام رغم ما كان يُتوقع فيه من التعرض للوليد وأمه، إلا أن الله ألجم الشانئين بكلام الوحي، وبرأت أمه من قولهم واتهامهم.

٢- ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ . . وهو معجزة أُخرى أن يؤخذ النبي الشاب بخيانة من أحد تلامذته، وتأليب من المجتمع اليهودي للحاكم الروماني، ويهم القوم أن يصلبوه ولكن تحدث المعجزة: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ويمرُّ اليوم بسلام . . ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

٣- ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ . . والنبي الوحيد الذي سيقف أمام الله يُسأل ويُستجوب هو عيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويمرُّ اليومُ بسلام أيضًا، فقد وصلت رسالة التوبيخ للقوم، وظهر على لسان من ألهوه وجعلوه ابنًا لله أنه بريء منهم . . .



﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وقد دار حوار بيني وبين أصدقاء كثير من النصارى، عن كيف مرَّت حادثة مريم وولادتها عيسى هكذا دون عقاب، حيث إنهم لا يقرون بكلام عيسى في المهد.

ولقد وردت قصة حمل مريم بعيسى بالتفصيل في إنجيل لوقا.

ووردت أيضًا في إنجيل متى بعبارة قصيرة جدًّا، ووردت في إنجيل (برنابا) الذي ترفضه النصارى، وفي هذه الأناجيل الثلاثة لم ترد بعض الحقائق التي ذكرها القرآن مثل:

هز جذع النخلة، السريْ الذي جعله الله تحتها، كلام عيسى في المهد ودفاعه عن أمه، نذر الصيام، تأنيب قومها لها.

والسؤال المهمُّ كيف مرَّ الأمر هكذا، وشريعة اليهود متشدِّدة جدًّا في الزنا، ولقد حملت مريم في خطبتها، وتلك جريمة شنيعة، فكيف مرَّت هكذا؟

وواضح أنهم رمَوْها بالزنا حيث يدافع الله تعالى عنها في قرآنه ويقول عن اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

وأيضًا لم تذكر الأناجيل هذا الاتهام، ولم تذكر الردَّ عليه،

كل ما ذكرته الأناجيل هو رؤية يوسف خطيبها التي برّأتها في إنجيل متى، وركض يحيى في بطن أمه عندما زارتهم مريم، ثم في النهاية نسبة عيسى إلى يوسف النجار يقول لوقا في إنجيله عند بيان نسل عيسى: (وهو على ما كان يظن ابن يوسف).

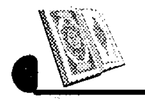
وحتى إذا كان يوسف نسبه إليه وهرب بمريم أثناء حملها بحجة الكتابة في التعداد العام فإنه لازال خطيبها لم يجر مراسم الزواج... والخطيب في شريعة اليهود غريب لا يحق له معاشرة امرأته وأتباع عيسى يرفضون كل ما ورد في القرآن من معجزات لبراءة مريم فكيف مرت هذه الحادثة بسلام؟

أما القرآن فقد ذكر الحقَّ في الأمر؛ فلا عيسى إله ولا ابن إله، ولا هو ابن زنًا، ولا أمه إله أو أم إله، ولا هي زانية، ولكن: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩- ٦٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].



﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥].

فما مر بكم من قصة عيسى في هذه السورة ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ تبارك وتعالى وهو حق يدمغ كل باطل غير ذلك.

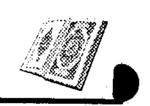
عيسى جاء بقولة حق هي (كن) فلا مجال بعد ذلك الحق إلى المماراة والجدل بالباطل، بل إن هذا القول الحق لهو حجة الله لكم في براءة مريم من الاتهام الشنيع ورفعها إلى درجة الصديقين وإثبات اختيار الله لابنها وإثبات جرم اليهود في محاولة قتلها فهذا ما جاء به (الحق) فماذا عندكم؟!

لم يلد ولم يولد:

والولد يتخذه الفانون للامتداد، والله باق لا يفنى، أو الضعاف للنصرة، والله لا يحتاج معينًا.

ومن النصوص التي ورد فيها الحق قول لوقا في إنجيله: (وسأله رئب قائلًا: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله)(١).

(١) الأناجيل الأربعة المتداولة يتضح فيها التضارب الشديد بين ادعاء أن عيسى إله أو ابن إله وبين تصريحه هو المستمر أنه له رب وله إله، ومنها نداؤه على الصليب -كما ادَّعوا- (إلِي إلِي لما شبقتني) أي ربي ربي، لما تركتني. فمن كان ينادي حينئذ؟ هل كان ينادي نفسه؟ أم كان ينادي ربه؟ وأي كلمة تنسب بنوة عيسى لله أو أنه إله أو دعاء الله بالأب هي لغة معروفة وموجودة في التوراة أن الله أبو كل البشر أبوة رحمة ورعاية لا أبوة ولادة وتبني.



وفي إنجيل يوحنا الذي عقد أربعة فصول أكثر من الآخرين لإثبات ألوهية المسيح.

يقول: (قال عيسى: وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك، أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته).

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾

وهكذا يأتي التسبيح في هذا الموقف لبيان شناعة تلك القولة أن يكون لله ولد، أو يحتاج ولد، أو يدعي أحد عليه أنه اتخذ ولدًا... سبحانه!!

أما العجب من طريقة ميلاد عيسى، فالرد عليها أيضًا: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

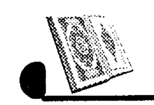
ثم يعود القرآن ليلفت أنظار الخلق كلهم إلى القضية الأساسية التي بعث بها الأنبياء جميعًا، والمهمة التي كلف الله بها الإنسان.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦][١].

وواضح من كلام عيسى بأن أسس الصراط المستقيم يمكن أن

---

(١) ووردت نفس الآية بالنص في سورة آل عمران الآية ٥١ وهي على لسان عيسى.. وسياق مريم يوحي أنه إما على لسان عيسى أو أنها أمر من الله تعالى، والمعنى في الحالتين ثابت لا شك فيه.



نلخصها في القواعد التالية:

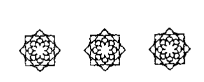
١- قواعد الإيمان: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] الإيمان بالله الواحد والعبودية لله والإيمان بكتبه وأنبيائه.

٢- قواعد العبادات: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

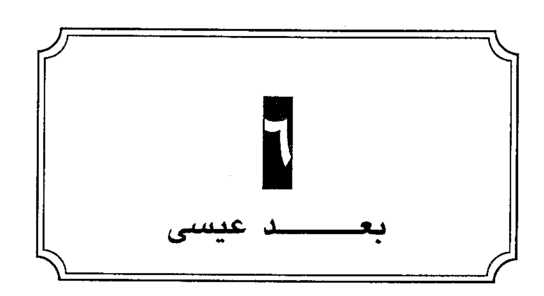
٣- قواعد الأخلاق: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

٤- اليوم الآخر: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

والله هو السلام، ويدعو إلى دار السلام، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.







٦
بعد عيسى

وتنتهي القصة المتعلِّقة بحمل وولادة عيسى هنا، ويذكر التاريخ والأناجيل أن ملك اليهود وكان اسمه (هيرودس) جاءه ثلاثة من المجوس، وقالوا له: إن نجم النبي ظهر، وإنه سيقتله. فخاف الملك وطلبه ليقتله، فهربت به أمه مريم إلى مصر التي أشار القرآن إليها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. وهذا المثبوت تاريخيًّا[١]، وعاشوا فيها حتى بلغ عمره عليه السلام من ٧ إلى ١٤ سنة حسب اختلاف الروايات، ثم عادت به إلى بيت المقدس، حيث إن هذه الفترة من ١٢- ٣٠ سنة، لم تذكر الأناجيل عن عيسى وأمه الكثير إلا ما ذكره لوقا من محاوراته لليهود وهو صغير[٢].

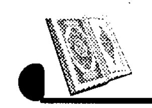
وحاول اليهود قتله أكثر من مرة إلى أن أظهر معجزاته، وبدأ هو ويحيى في دعوتهم لليهود أن يعودوا إلى دينهم[*].

---

(١) راجع قصص الأنبياء والتاريخ، د. إبراهيم البدراوي ج٦ ص٣٠-٤٢.

(٢) راجع (حياة المسيح- دراسة تفصيلية)، د. برايان ج. بايلي الناشي: P.T.W - ص٢٣.

(*) راجع تفاصيل قصة حياة عيسى ومريم عليهما السلام في موسوعة نساء أضنان التاريخ للمؤلف.



وبعد رفع عيسى إلى الله بعد أن تآمر اليهود والملك على قتله تشتَّت أتباعه، وحدثت أحداث عظام مصاحبة لمحاولة صلب عيسى عليه السلام وما يتفق فيه القرآن مع ما يعتقده النصارى هو أن عيسى رفع إلى السماء.. والاختلاف هل حدث الصلب أم لا.. والقرآن واضح في ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ﴾ ويقدم القرآن دليلًا جديدًا على مكانة عيسى عند الله، وأنه لم يُمَكِّنْ أعداؤه منه، أنه رفعه إليه سبحانه قبل أن يتمكنوا من قتله..

الحواريون:

كان تلامذة عيسى في ذهول شديد بعد اختفائه من بينهم، ولكنهم كانوا يجتمعون بعده ليراجعوا وصاياهم لهم.. فهم الذين أعلنوا إيمانهم بعد أن كفر به اليهود من قومه..

> ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

والحواريون هم الأنصار، يقول رسول الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩١)، (٢٦٩٢)، (٢٨٣٥)، (٣٥١٤، ٣٨٨٧)، (٦٨٣٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٥).



وهو نفس موقف الرسول ﷺ عندما كان يمرُّ على القبائل في مواسم الحج، عندما اشتدَّ كفر قومه وعناد قومه، وكان يقول: «من رجل يؤويني حتى أبلّغ كلام ربي؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي؟»[1].

ولذلك يدعو الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بهؤلاء الحواريين دلالة على مكانتهم التي يرجوها كل مسلم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ويسميهم أتباع عيسى الرسل، وقد جمعت أعمالهم وجهودهم في كتاب ضموه إلى كتبهم المقدسة يسمى [أعمال الرسل].

الاجتماع الأول:

تقول (أعمال الرسل). إن التلاميذ اجتمعوا في العُلّيهْ[*] التي كانوا يجتمعون فيها مع عيسى عليه السلام بعد خمسين يومًا من رفعه، وهناك أوحى إليهم روح القُدُس، وامتلئوا منها، فأصبح كلامهم يفهمه جميع الناس مع اختلاف لغتهم[2].

---

(١) مسند أحمد، وانظر: تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٧ .

(*) أي المكان المرتفع العالي.

(٢) أعمال الرسل (٢: ١).



وبدءوا يحملون الدعوة، ويدعون الناس إلى الإيمان برسالة عيسى، وقد ورد في القرآن وحي الله تعالى إلى الحواريين.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وكان هذا الوحي في حياة عيسى عليه السلام كما بين القرآن.. ولقد حمل هؤلاء الحواريون الرسالة بعد عيسى، وانتشروا في الأرض في خفية شديدة، حيث كان اليهود قد ألبوا الرومان على متابعة كل من آمن بالرسالة الجديدة.

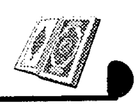
ووقف بطرس -أحد تلاميذ عيسى- وسط الشعب اليهودي يدعوهم إلى الإيمان برسالة عيسى؛ فآمن يومها ثلاثة آلاف[١].

وبدأت بعض المعجزات تظهر على أيدي الحواريين؛ مثل شفاء بطرس للأعرج[٢].. وانتهز بطرس الفرصة، وقف يدعو بني إسرائيل.. [أيها الرجال الإسرائيليون، ما لكم تتعجبون من هذا... إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إله آبائنا مجد عبده[٣] يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس، وهو

(١) أعمال الرسل (٢: ٤١). وراجع قصص الأنبياء والتاريخ (٦/ ١١٠).

(٢) أعمال الرسل (٣- ١).

(٣) في بعض النسخ (فتاه).



ينوي الحكم بإطلاقه، ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل][1].

وكان بيلاطس الملك الروماني يتحرج من قتل عيسى، حيث رأى أنه لم يذنب، وعرض على اليهود أن يختاروا إما أن يُطلق لهم عيسى ويعفو عنه، أو يطلق أحد السارقين القتلة، فاختاروا أن يُطلق السارق ويقتل عيسى، وقالوا: (اقتله ودمه في رقابنا ورقاب أبنائنا من بعده). ولكن نجاه الله منهم، ورفعه إليه.

ولم ترق دعوة تلاميذ عيسى لليهود؛ فحرض كهنة اليهود الجند من الرومان عليهم؛ فألقوا القبض على بطرس وآخرين، وألقوهم في السجن، ولكن زاد أتباع المسيح عيسى، وخاف الكهنة من غضب الشعب فأطلقوهم، وعادوا إلى رفاقهم، وقصوا عليهم القصة[2].

واستمر الاضطهاد والدعوة؛ فخرج الحواريون بالرسالة إلى أرض أُخرى، وأرسلوا رسائل إلى بابل وسط العراق، ورسائل إلى آسيا الصغرى.. وبدأت دعوة عيسى في الانتشار، وبدأ الشهداء يتساقطون.

---

(١) [أعمال الرسل ٣: ١١- ١٥].

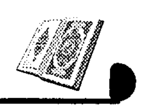
(٢) انظر قصص الأنبياء والتاريخ (٦/ ١١٢).



بولس والدين الجديد:

كان بولس أحد كهنة اليهود، واسمه شاول.. وكان يتبع طائفة الفريسيين المعروفة بتعصبها الشديد واحتقار كل من هو غير يهودي، وكان يعتبر الشعب اليهودي شعبًا متميزًا، ويضيق بإذلال الرومان لهم، وكان ينتظر المسيح (أوالمسيا كما تسميه التوراة) الذي سيخلص الشعب اليهودي من الذل، وأنه سيأتي كملك يقود اليهود إلى الغلبة، ولما جاء عيسى كان بولس في شبابه، ولما عرف أنه يبشر بملك سماوي ومملكة روحانية، أنكر شاول دعوته، وامتلأ حقدًا عليه، وبغضًا له ولأتباعه.. لأنه يريد نبي يدعو إلى عودة ملك بني إسرائيل على الأرض وكان وقتها يعيش بمدينة طَرَسُوس في أسيا الصغرى تحت حكم اليونان.. ودرس التعاليم اليهودية في رحلة حجه إلى أورشليم، ونال لقب (معلم)، وتعلَّمَ اليونانية.. وكان يعيش من صناعة الخيام بجانب قيامه بالتعليم في المدارس اليهودية.

وكان شاول من المؤيدين لملاحقة تلامذة عيسى، وللقضاء على هذه الدعوة في مهدها.. واتَّجه إلى أورشليم، وطلب من رؤساء الكهنة اليهود أن يُخولوه صفة قانونية بإعطائه رسائل إلى رؤساء الجاليات اليهودية في دِمَشْق تُخَوِّل له القبض على من آمنوا بالمسيح، وسوقهم إلى أورشليم.



وفي رحلته إلى دِمَشْق حدثت معجزة الإيمان بالمسيح، حيث ناداه منادٍ: لماذا تضطهدني؟ وجاء ضوء شديد فأعمى بصره.. وحكيت روايات تعتبر معجزات متتالية، وصلت به أنه أصبح من أشد المتابعين لرسالة عيسي.. والتقى ببطرس (حواري عيسى) وردَّ الله عليه بصره، ثم اعتزل الحياة في الصحراء لمدة ثلاث سنوات، ثم عاد ليواجه اليهود الذين اتَّهموه بالمروق من اليهودية.. وحاول لقاء بقية التلاميذ، ولكنهم توجَّسُوا منه، ولم يصدقوه، وأشاعوا أنه يتظاهر ليندسَّ بينهم ويتعرَّف عليهم؛ ليساعد في القبض عليهم.. ولكن أحد التابعين طمأن التلاميذ، وأكَّدَ لهم صدق إيمانه.. ومع محاولات القبض عليه استطاع بمساعدة المسيحيين الهروب إلى مسقط رأسه إلى طَرَسُوس[(١)].

مبـادئ الديـن الجـديـد:

يرى بعض علماء الغرب المسيحي أن بولس لما بدأ تبشيره بالمسيحية التي اعتنقها، وجد أن الأمم حوله -وخاصة اليهود- يرفضون كثيرًا من تعاليمها.. فأدخل إليها بعض الأفكار التي استمدَّها- كما يقول «ويلز»- من الثقافات الأجنبية والديانات المجاورة.. وبدأ بولس وكأنه يُنشئ دينًا جديدًا.

---

(١) راجع أعمال الرسل (٩: ٤، ٢٦: ١٦) وأعدادًا أُخرى متفرقة، وراجع قصص الأنبياء والتاريخ (٦/ ١١٥- ١١٨). ولقد سجّل الدكتور (رشدي البدراوي) أن الكثير من مفكري الغرب يكذبون هذه القصص حول شاول اليهودي .



١- قال: إن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب، إنما كان ابن الله.

٢- إن عيسى قتل على الصليب تضحية به من أجل غفران خطايا البشر.

٣- التثليث.. وهو أن الأب إله، والابن (المسيح) إله، والروح القدس إله.

يقول «بيري»: إن بولس هو مؤسس المسيحية، وقد أدخل على الديانة بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود، كما أدخل بعض صور الفلسفة اليونانية ليجذب لها أتباعًا من الإغريق[١].

وأعلن بولس أنه لا يشترط للأمي غير اليهودي أن يُصبح يهوديًا ثم يصير مسيحيًا كما كان الحواريون يشترطون فهمًا من قول عيسى عليه السلام (ما جئت إلا لخراف بني إسرائيل الضالة)، بل يمكن أن يكون مسيحيًا مباشرة؛ ولذلك أعلن عدم ضرورة الختان. (وهو من الطقوس المقدّسة لدى اليهود).

واستمرَّ بولس يدعو للديانة التي ابتكرها أربعةَ عَشَرَ عامًا،

(١) الأديان والمذاهب، محمد أسود، ص٢٠٩ .وراجع قصص الأنبياء والتاريخ (٦/ ١١٨-١١٩).



ويُشيِّد العديد من الكنائس، وتعددت أسفار بولس ما بين أسيا الصغرى وطَرَسُوس وسوريا وفِلَسْطين وقُبْرُص وهكذا.. وكان يدعي أنه تلقى الرسالة من الله مباشرة، وليست عن طريق الرسل الذين اختارهم عيسى في حياته، وأرسل رسائل يُؤكِّدُ فيها على أركان دعوته، ومنها رسالته إلى أهل جلاطيا التي أكَّدَ فيها على أن الله أرسل ابنه ليقتل كفارةً عن خطيئة آدم الأولى التي حملتها البشرية إلى مجيء عيسى، وأن الإيمان بهذا الاعتقاد يكفي ليطهر الإنسان من الخطايا، وبدأ يُعلن خلافه لتلاميذ عيسى، ومنهم بطرس الذي كان يدعو إلى الختان.

وكان بولس ناجحًا في جدال اليهود واكتساب أعداد غفيرة منهم ومن غيرهم إلى مبادئه، فكان اليهود يُهيِّجُون المشاعر ضده في كل بلادٍ يسافر إليها، حتى انتهى به المقام في روما، حيث قبض عليه وحُدِّدَت إقامته في بيتٍ هناك مربوطًا بسلسلة، ولكن كان مسموحًا له أَنْ يلتقي بالناس لمدة سنتين يدعو فيهما الناس إلى المسيح (ربًّا ومخلّصًا).

وأرسل من روما رسائل إلى المسيحيين في كل البلاد التي زارها، وكان منها رسالته الأخيرة إلى العبرانيين، وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، ثم ارتدوا مرةً أُخرى.

وأخيرًا أخذ اليهود يُلحُّون في تقديمه وأتباعه إلى المحاكمة إلى



أن شبَّ حريق هائل في روما على يد قيصرها (نيرون) ليتخلص من الأحياء الفقيرة القذرة، وأشاع اليهود أن بولس وأتباعه هم مدبرو الحريق، وبدأت سلسلة من التنكيل والاضطهاد للمسيحيين، وحكم على بولس بالإعدام وفصل رأسه عن جسده عام ٦٧م(١).

كتابة الأناجيل:

الإنجيل هو اسم الكتاب الذي أنزله الله على عيسى، كما أخبر القرآن بذلك.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. [آل عمران: ٢-٤]

وأخبر سبحانه وتعالى أن الله علَّمَ عيسى الإنجيل في بشارته لمريم بعيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والكتاب يقصد به هنا الكتابة.. والحكمة هي الفهم.. والتوراة هو الكتاب المنزل على موسى.. والإنجيل هو الكتاب المنزل على عيسى، وكان عليه السلام يحفظ هذا وهذا(٢).

---

(١) راجع أعمال الرسل ورسائل بولس، وراجع قصص الأنبياء والتاريخ (٦/١١٨-١٢٧).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦.

ويُبيِّنُ الله تعالى موقع عيسى وكتابه ورسالته من مسيرة الأنبياء: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

أما الإنجيل عند المسيحيين، فلا يعني كتابًا أنزل على عيسى، وإنما هو بمعنى البشارة أو الأخبار السارة، بمعنى كل ما ورد عن أخبار المسيح عيسى وآثاره..

والتي كانت تتناقلها أجيال المسيحية الأوائل شفاهة، ثم سُجِّلَت بعد ذلك كتابة..

ولقد اشترك الكثيرون في كتابة هذه الأخبار، كل حسب ما رأى أو سمع، وأول إنجيل كُتِبَ بعد خمسة وثلاثين عامًا من رفع المسيح عليه السلام؛ أي: بعد فناء الجيل الأول الذين عايشوا المسيح تقريبًا. وقد كتبت حوالي ٣٥ إنجيلًا، كل يكتب ويسمي ما كتب إنجيلًا.. وحتى يتم التفريق بينها كانت تسمى بأسماء كاتبيها.

وفي منتصف القرن الثاني الميلادي، وفي أحد المجامع الكَنَسِيّة تمَّ اختيار أربعة نسخ، ورفضت الباقية، وأطلق عليها (الأبوكراتف)؛ أي: الأناجيل الباطلة.. وهذه الأربعة التي يتكوَّن منها ما يُطلق عليه (العهد الجديد)(١) من الكتاب المقدّس الذي

(١) العهد القديم هو أسفار التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى أيضًا.



يُؤمن به المسيحيون، ثم أُضيفت إليه أعمال الرسل، وبعض الرسائل من الرسل، وخاصة بولس (شاول اليهودي). وهذه الأربعة هي أناجيل (مَتَّى، ومُرْقُس، ولُوقا، ويُوحَنّا).

١- إنجيل متى:

ومَتَّى هو الوحيد بين كتبة الأناجيل الأربعة الذي كان من الحواريين.. ويذكر لقاءه الأول مع المسيح في إنجيله، يقول: (وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجباية اسمه مَتَّى، فقال له: اتبعني. فقام فتبعه). وكان يهوديًا يعمل عشارًا. (أي: يجمع الضرائب)..

ويرى المحلِّلون أن خلفيَّتَهُ الثقافية كانت رومانية هيللينية شرقية. وكان يُهاجم بعنف الفريسيين ورياءهم. كما أنه كان ضد المسيحية المتحررة من قيود الناموس، والتي نادى بها بولس، فهو يُركِّز على قول المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، بل لأكمِّل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» [مَتَّى ٥: ١٨].

إلَّا أن الباحثين المختصين يرون أن مَتَّى أسرف في الاستشهاد بنبوءات العهد القديم، وحَرَص على ربطها بكل ما يتعلَّقُ بقصة المسيح منذ ولادته حتى رفعه، كما أنه كان من المؤمنين بتوقع

نهاية سريعة للعالم، فهو قد توقَّعَ عودة المسيح بعد رفعه بسنوات قليلة قبل أن يكون رسله قد أكملوا التبشير بالإنجيل في مدن إسرائيل؛ إذ يقول: «فإني الحق أقول الحق لا تكمِّلون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان» [مَتَّى ١٠: ٢٣]. ومن الجلي أن هذا لم يحدث، كما أن خاتمة الإنجيل مشكوك في صحة نسبتها إلى المسيح؛ إذ هي تقول: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» [مَتَّى ٢٨: ١٩].

وصيغة التثليث هذه لم ترد أبدًا على لسان المسيح. بل ظهرت في وقت متأخر في عصر الرسل، وأوَّل من نادى بها بولس الرسول. ويُرجَّح كتابة إنجيل مَتَّى في الفترة من ٨٥- ١٠٥ ميلادية ثم نسب إلى متى، مما يُتيح لمن يكتب أن يتأثَّرَ بالمعتقدات السائدة في ذلك الوقت، وتجيء كتاباته متأثرة بها. وكان هذا هو الحال مع كَتَبة الأناجيل الأُخرى.

٢- إنجيل مُرْقُس:

ومرقس هو أحد المبشِّرين السبعين. طاف بكثير من البلاد داعيًا للمسيحية، ثم استقرَّ بمِصْر كأسقف لكنيسة الإسكندرية، ومات مقتولًا. ولم يكن مرقس معاصرًا للمسيح، ولا تابعًا له، بل كان تابعًا لبطرس، وقد كتب إنجيله بالقدر الكافي من الدقة التي سمحت بها ذاكرته عما سمع عن أعمال يسوع وأقواله، ولكن دون مراعاة للنظام، أو التسلسل التاريخي.



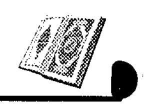
٣- إنجيل لُوقا:

لم يكن لوقا من الحواريين أو تلاميذهم، بل كان تلميذًا لبولس، ودوَّن ما سمعه من بولس الرسول، ويُعتقد أنه كتب إنجيله حوالي عام ٧٠م، ويبدأ إنجيله بمقدمة يقول فيها: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة من الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخُدّامًا للكلمة. رأيت أنا أيضًا. إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس. لتعرف صحة الكلام الذي علمت به».

ويَتَّضِحُ من هذه المقدّمة أن لُوقا يكتب إلى صديقه ثاوفيلس - بدافع شخصي- ولم يدعِ أنه كتبها بإلهام أو مسوقا من الروح القدس، بل يُقرِّرُ صراحةً أن هذه المعلومات جاءت نتيجة لاجتهاده الشخصي؛ لأنه تتبع كل شيء من الأول بتدقيق. نقلًا عن الذين كانوا معاصرين للمسيح. وأنه يفعل ذلك تقليدًا لكثيرين غيره فعلوا نفس الشيء.

٤- إنجيل يُوحَنّا:

يرى البعض أن يُوحَنّا كاتب هذا الإنجيل كان أحد تلاميذ المسيح، بينما يرى أغلب المؤرخين أنه يُوحَنّا بن زبدي، وكان في إفسس، ولم يَرَ المسيح، ومن المرجَّح أنه كتب إنجيله في العشر سنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادي؛ أي: حوالي



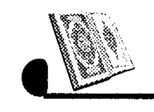
عام ٩٠م. ويرى آخرون أنه هو يُوحَنّا مُرْقُس تلميذ بولس الرسول استنادًا إلى ما جاء به [يُوحَنّا ٢٠ : ٢٠]: «وأما هذه، فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه». وهذا هو نفس ما كان يقول به بولس.

إنجيل برنابا من نماذج الأناجيل المرفوضة:

هذا إنجيل خامس ثار حوله خلاف كبير، ولا تعترف به الكنيسة، وهو ضمن الكتب المنهي عن مطالعتها. وبرنابا هو من الصف الأول من أتباع المسيح، كما أنه أحد الرسل السبعين، وأهم ما يُميِّزُ هذا الإنجيلَ أنه يُنكر ألوهيةَ المسيح، أو أنه ابن الله. كما ينفي أن المسيح صُلِبَ. وقد أصدر البابا جلاسيوس الأول سنة ٤٩٢م أمرًا بتحريم قراءته. ويَتَّهِمُ المسيحيون أحد المسلمين بتأليف هذا الإنجيل ونسبته إلى برنابا استنادًا إلى مبادئ التوحيد التي جاءت به وإلى ما جاء به مِنْ أَنَّ مَنْ سيأتي في آخر الزمان ليس هو يسوع، بل محمد ﷺ. ولكن يحتوي الإنجيل أيضًا على الكثير من المخالفات لعقيدة المسلمين أنفسهم مما ينفي نسبته إلى المسلمين.

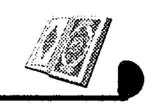
الاضطهاد وإيمان قسطنطين:

انتشرت المسيحية في روما وإيطاليا مع بداية القرن الثالث الميلادي. وبدأ المسيحيون يتواجدون في الحياة العامة، وكانت



معتقداتهم تُنافي الوثنية الرومانية، فبدءوا يُعلنون رفضَهم لبعض الطقوس اليونانية مع الملوك، وكان اليهود يبثون دعاتَهم عند كل معركة يخسرها الرومان أن ذلك بسبب سماحهم للديانة المسيحية في الانتشار، وبدأت حملات اضطهاد المسيحيين من منتصف القرن الثالث الميلادي ٢٣٨م وسجَّل القرآن بعض أحداث هذا الاضطهاد في قصة أهل الكهف، وفي سورة البروج ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وخرج المسيحيون أكثر صلابة بعد هذه المحن، وازداد المعتنقون للمسيحية ثم شاء الله أن يُؤمن قسطنطين الإمبراطور الروماني بالمسيحية لأسباب متعددة ذكرتها كتب التاريخ.. فقد حدث انقسام كبير في الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية تضم أسيا وأفريقيا، وغربية تضم أوروبا، وهي التي كان قسطنطين يحكمها.. وحتى يقوِّي قسطنطينُ جانِبَهُ أعلن وقف اضطهاد المسيحيين، وإصلاح كنائسهم، وأصدر عام ٣١٣م قراره الشهير بحرية العبادة، والاعتراف بسلطان الكنيسة.. وأخيرًا أعلن اعتناقه المسيحية، ولكن حتى لا يُغضب الوثنيين لم يُعلنها ديانة رسمية للدولة.



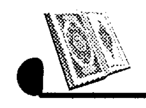


٧ فاختلف الأحزاب

زال الاضطهاد عن النصارى، وخاصة بعد توحد شطري الإمبراطورية الرومانية تحت قيادة قسطنطين.. ولكن حدث صراع عقائدي أحدث انقسامات شاسعة بين المسيحيين أنفسهم، وبدأ عهد جديد من الاضطهاد، ليس اضطهاد أعدائهم لهم، ولكن اضطهاد كل فريق للفريق الآخر.

بدأت الانشقاقات عندما طرح العفو عن الذين رضخوا للتعذيب في عهود الاضطهاد، فكان فريق يُوافق، والآخر يرفض العفو عنهم؛ فينقسم الفريقان إلى كنيستين متضادتين، ثم ظهرت فكرة اختلاف طبيعة المسيح عن طبيعة الله على يد أحد النُّسّاك المسيحيين ويدعى (آريوس).. وكانت آراؤه في (طبيعة المسيح) والتي أطلق عليها (المذهب الآريوسي) تُعتبر بُركانًا تفجر في الديانة المسيحية ليقسمها أشتاتًا.

وكان جوهر آراء آريوس يتلخص في قوله: «إنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الله؛ لأنه من



صنعه، وبالتالي هو أقل منه مرتبة». .

كانت آراء (آريوس) يغلب عليها الطابع التوحيدي، فالله الواحد هو الأزلي، والابن خلق من خلقه، فهو ليس أزليًا. فرفضت كنيسة الإسكندرية آراء آريوس، وطردته من الكنيسة، واشتعل الموقف بين الفريقين، وأصبح النصارى على شقين:

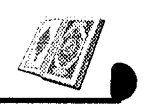
الشق الأول: المنادون بالتثليث.

الشق الثاني: المنادون بالتوحيد.

ولذلك تقول دائرة المعارف الأمريكية:

(لقد بدأت عقيدة التوحيد كحركة لاهوتية بداية مبكرة جدًا في التاريخ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من السنين، إن التوحيد هو القاعدة الأولى من قواعد العقيدة، أما التثليث فإنه انحراف عن هذه القاعدة، لذلك نجد أن من الصواب أن نتكلم عن التثليث باعتباره حركة متأخرة ظهرت ضدَّ التوحيد، بدلًا من اعتبار التوحيد حركة دينية جاءت لتقاوم التثليث).

ووصل الصراع إلى قسطنطين فأرسل خطابًا إلى أريوس واسكندر بطريرك الأسكندرية وصف فيه الصراع بأنه جدل عقيم حول أشياء غير مفهومه وطلب منهما الاتفاق.. ولكنهما لم يستجيبا للنداء، فعقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م، الذي اشتد فيه



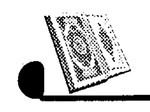
الصراع بين مؤيِّدي التوحيد ومؤيدي التثليث، وحضر المجمع ما يزيد عن ٢٠٠٠ من رجال الدين، وتبنت الأغلبية آراء آريوس التوحيدية، فأصدر الإمبراطور قسطنطين قرارًا بفض الاجتماع، ثم أُعيد عقده، وتمَّ اختيار ٣١٨ فقط للحضور.. ووضع الإمبراطور حَدًّا للمجادلات، ووضع بنفسه الصيغة التي يجب أن يوافق عليها المجتمعون، وهي التثليث ورفض آراء آريوس.

ولم يقف الصراع بين الفريقين عند هذا الحد، بل استمرَّ بين أتباع آريوس والكنيسة الإسكندرانية، وكان كل منهما يستعدي الإمبراطور على الآخر.

وبدأت المجامع الكَنَسِيّة تتوالى، وفي كل مجمع كان الحاضرون يقرون مبدءًا جديدًا يضاف إلى العقيدة المسيحية ويظهر معارضون له فتتكون فرقة جديدة.

وألغيت أناجيل كثيرة، قيل: إنها تبلغ المائة، وسميت (الأبوكراتف) أي: المزورة، وثبتت الأربعة المعروفة: (متى ومرقس ولوقا ويوحنا).

واضطهد الموحدون حتى كاد يصيبهم الفناء ثم انقسم فريق التثليث بعد ذلك إلى فرق، قالوا: إن الله إله، وعيسى ابنه، ولدته أمه من الله. وقالوا: إن الله دخل في بطن أمه، فخرج من فرجها. وقالوا: إن أمه إله. وقالوا: الثلاثة آلهة. وقالوا: إن



الروح القدس إله وأصبحوا أرثوذكس، وكاثوليك، وبروتستنت، وأريسيين وإنجيليين ويعقوبيين... إلخ.

ولا عجب أن يكون هناك اختلاف في الآراء في أي دين سواء سماوي أو مذهب أرضي، إلا أن طبيعة الخلاف بين أتباع المسيحية كانت تتميز بظاهرتين عجيبتين:

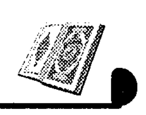
الأول: أنها في أصل الاعتقاد وطبيعة الإله والرسول المرسل منه.

الثاني: أن مجرد الاختلاف يؤدي إلى انشقاق وظهور فرقة جديدة تتميز بما يجعلها دينًا مختلفًا.. كانت المشكلة هي التوفيق بين ألوهية المسيح التي صدر بها قرارات، وأصبحت معتقدًا أساسيًا وراسخًا في الديانة المسيحية، وبين الحقيقة الثانية؛ وهي أن المسيح وُلد من مريم العذراء، وكان يمشي على الأرض، ويأكل كما يأكل الناس، وهذا ما سجَّله القرآن الكريم:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومن هنا ظهرت المذاهب المسيحية المختلفة:

١- **مذهب النسطوريين**: نسبة إلى نسطور الذي كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١م، ويقول نسطور شارحًا مذهبه: إن مريم لم تلد إلهًا؛ لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسدًا؛ ولأن



المخلوق لا يلد خالقًا. فمريم ولدت إنسانًا. وعلى هذا فمريم لا تسمى «والدة الإله»، بل والدة المسيح الإنسان. ثم جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته؛ أي: أن عيسى بعد الولادة اتَّحد بالأقنوم الثاني اتحادًا مجازيًا. أو كما شَّبهه البعض باتِّحاد الماء في الزيت، فكل واحد منهما باقٍ على جنسه وطبيعته، وبهذا يكون في المسيح طبيعتان: واحدة بشرية، والأُخرى إلهية.

٢- **المذهب اليعقوبي**: نسبة إلى داعية مشهور قام بنشر المذهب كرد فعل لعقيدة نسطور. وأقره مجمع إفسس عام ٤٣١م. وهو يقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة. ففي المسيح أقنوم واحد تمَّ بعد الاتِّحاد الذي شبَّهه بعضهم بالماء يلقى على الخمر فيصيران شيئًا واحدًا. وكان قرار المجمع هو: «إن لسيدنا يسوع المسيح أقنومًا واحدًا إلهيًا اتَّحد بالطبيعة الإنسانية اتحادًا تامًا بلا اختلاطٍ أو امتزاج ولا استحالة. فالعذراء هي بحق والدة الإله، فمريم لم تلد إنسانًا عاديًا، بل ولدت ابن الله المتجسِّد لذلك حقًّا هي أم الإله»(١). وقد تبنَّت هذه الآراء الكنائسُ الشرقية، ويسمى أتباعها الأرثوذكس.

٣- **المذهب الملكاني**: وهو يعتنق ما أقرَّه مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م من أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين. فالمسيح أقنوم إلهي

---

(١) (تاريخ الأقباط. زكي شنودة. ص ١٦٠).

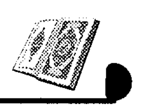


بحت، ولكن له ذاتان وكِيانان؛ هما الإله والإنسان. وهو هنا يشابه مذهب النسطوريين، ولكنه يختلف عنه في الاعتقاد بأن مريم ولدت الاثنين معا. فهي قد ولدت يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلهية، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيئتان في أقنوم واحد. ولذلك فهم يقولون: «نؤمن بالله الأب مالك كل شيء. صانع كل شيء. ما يُرى وما لا يُرى بالرب الواحد يسوع المسيح. بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع. إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي خلق كل شيء من أجل الناس. ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القُدُس. ونؤمن بروح القدس. بروح الحق الذي هو مُشْتَقٌّ من أبيه. روح محبَّة وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

٤- **المذهب الماروني:** نسبة إلى يُوحَنَّا مارون الذي دعا سنة ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبيعتين، ولكن له مشيئة واحدة؛ لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد.

من سيحاسب الناس:

يعتقد المسيحيون أن الأب أعطى سلطان الحساب لابنه يسوع؛ لأن الابن بالإضافة إلى ألوهيته وأبديَّته هو ابن الإنسان أيضًا؛ ولذلك فهو أولى بمحاسبة الإنسان، وأنه بعد أن ارتفع إلى



السماء جلس بجوار الآب على كرسيٍّ استعدادًا لاستقبال الناس يوم الحشر. وفي ذلك المعنى وردت فِقْراتٌ من الكتاب المقدّس:

- في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس يقول: «لا بُدَّ أننا جميعًا نظهر أمام كرسي المسيح؛ لينال كُلٌّ منّا ما كان بالجسد، بحسب ما صنع خيرًا كان أم شرًّا».

- في رسالة بولس إلى أهل رومية يقول: «إننا جميعًا سوف نقف أمام كرسي المسيح».

- في إنجيل يُوحَنّا: «الأب لا يدين أحدًا، بل قد أعطى الدينونة للابن».

ولكن في ١٥/٦/١٩٦٦ نشرت جريدة التيمز اللندنية وثيقة دينية اكتشفت مؤخرًا، جاء بها: تعتقد المسيحية أن عيسى ابن الله المقدَّس بالرغم من أن أكثر أتباعه في السنوات التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبي آخر لبني إسرائيل. وجاء في النص منسوبًا إلى عيسى: «لن أحاسب الناس على أعمالهم أو أحكم عليهم. الذي أرسلني هو الذي يصنع ذلك»[1].

---

(١) العهد القديم هو أسفار التوراة التي يؤمن بها اليهود وراجع قصص الأنبياء والتاريخ٦/ ١٣٩-١٤١ .



﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]

والأحزاب هم الذين اختلفوا في عيسى من داخل أتباعه والمؤمنين به ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾[١] ليسوا من أعدائهم فالقضية هنا أكبر حيث إن المسئولين عن نقاء الإيمان وسلامة العقيدة هم كانوا السبب المباشر باختلافهم وجدلهم في تشويه الاعتقاد ولذلك توعدهم الله بالويل.

وهذه الآية تؤجلهم إلى يوم القيامة ﴿مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، حلمًا منه سبحانه، وثقة في قدرته على أخذهم إذا شاء.

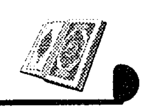
عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَداً وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[٢].

عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ**

---

(١) والأحزاب جمع حزب وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادئ، ورأى من الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه، ويسيرون في حياتهم على وفقه ويخضعون حركة حياتهم لهديه (الشعراوي ١١٤/ ٩٠٨٤) والتعبير القرآني يبين شدة الانقسام بينهم حتى أصبحوا أحزابًا مختلفة .

(٢) رواه البخاري، (٥٧٤٨)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب لا أحد أصبر على أذىً من الله رقم (٢٨٠٤).



اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(١) [هود: ١٠٢]».

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وهو مشهود لجميع البشر حتى تظهر العقيدة السليمة لجميع البشر ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

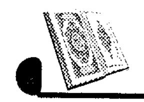
الآن أبصروا وسمعوا.. لقد كانوا بلا سمع ولا بصر في الدنيا لأنهم غابوا بجهلهم عن الوعي، أما اليوم فقد اشتدت الأبصار وقويت الأسماع وظهرت الحقائق لا أحد أسمع ولا أبصر منهم يوم القيامة.

﴿وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وهو أعجب الظلم حيث ظلموا أنفسهم فالله العادل ينصف أنفسهم منهم يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) ومسند أبي يعلى (١٣/ ٢٥١) (٧٣٢٢).



يوم الحسرة:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]

ولكن الله الرحمن الرحيم أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى يوم القيامة مكلفًا بإنذار هؤلاء الناس، وأعجب من مسلم يقرأ مثل هذا الأمر بإنذار أصحاب العقائد الفاسدة حسب قرآنه وإيمانه ثم يطالب بالتوقف عن تنفيذ الأمر وهو يعلم أن الحسرة ستصيب بني قومه ويجب أن ينقذهم عن غفلتهم.. فإذا سكت يجد القرآن لازال متلوًّا بين يديه صباحًا ومساءًا ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

يصف مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، وواضح المفارقة بين حالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة.

في الآخرة أسمَع الخلقِ وأبصرَ الخلق وفي الدنيا في غفلة وفي ضلال مبين.

وتتوالى الآيات في تقريع شديد وبيان لموقفهم يوم القيامة.

ولأن الصورة كلها قد اتضحت أمامهم وأصبح لا سبيل للرجوع لتدراك الأمر، فإن هذا اليوم هو ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم تشتد الحسرات، وكأن هذا اليوم ليس فيه إلا الحسرة، فهي المسيطرة

على الموقف، يوم يعرف أصحاب الغفلة الذين لا يؤمنون أن الحق كان واضحًا، وهم تغافلوا عنه، يوم ينظر أهل النار إلى مكانهم في الجنة الذين حرموا منه، يوم يذبح الموت الذي يستريح به الناس من العذاب.

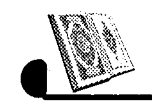
عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»(١) ثُمَّ قَرَأَ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأشار بيده ثم قال: «**أهل الدنيا في غفلة الدنيا**».

وكأن الموقف كله في ذلك اليوم يوم الحسرة تتجاوب فيه أصداء الحسرات.

وقد صاغ الله حسراتهم في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

---

(١) رواه البخاري، ح(٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ٢١٨٨) (٢٨٤٩).



﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وتبدو الحسرة كل الحسرة يوم ينزع الله من كل ملك ملكه، ومن كل غني ماله، ومن كل قوي قوته، ومن كل جبَّار جبروته، ومن كل متكبِّر كبره، وينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ ويبين ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

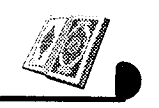
وتكون الحقيقة واضحة:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]

فالأرض ملك الله استخلف الإنسان عليها لينظر ماذا يفعل ويوم القيامة ليس لأحد ملك على شيء... فالأمر كله لله.. فيعود الملك إلى صاحبه الأعلى ولا أحد يرثه إلا الله تعالى...

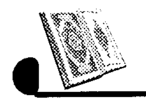
ولا يتوقف الأمر على مجرد عودة الملك إلى مالكه بل سيعودون جميعًا إليه فهم أيضًا من ملكه وخلق من خلقه.. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

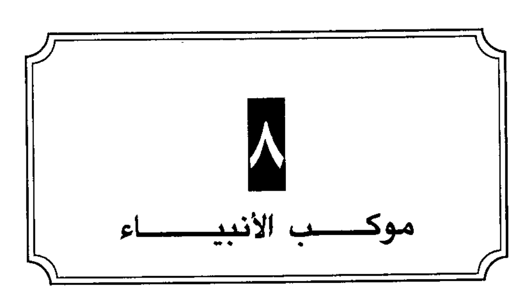
وتكون الحسرة عندما يتبرَّأ عيسى الذي عبدوه منهم، عندما يستجوبه ربه سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا



لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩].







إبراهيم...

بدأت السورة بنهاية الموكب العظيم بهؤلاء الأنبياء الثلاثة زكريا وابنه يحيى وابن خالته عيسى حيث تختم النبوة في بني يعقوب بن إسحق بن إبراهيم لتعود مرة أخرى إلى الأصل إبراهيم عليه السلام حيث تبدأ المسيرة.. وينطلق الموكب (موكب الأنبياء) ليتضح للمؤمنين أنهم غير مقطوعين عن الأصل وإنما لهم جذور في التاريخ ممتدة تسير على درب التوحيد لم تنقطع يومًا ما، بدايتها إبراهيم عليه السلام؛ لتظهر لنا أطراف القضية، قضية التوحيد في الأرض، من أجل أن نحمل الأمانة كاملة، ففرع إسحاق من إبراهيم تفرع إلى أنبياء كثير لدعوة الناس، أما فرع إسماعيل فكان ثمرته الحبيب ﷺ. ليُحْيِيَ أمة تكون كلها دعاة هداه على طريق النبوة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

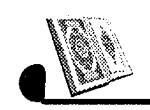
وإبراهيم كما قالت التوراة هو ابن تارخ، وينتهي نسبه إلى سام ابن نوح، وكان يكنى أبا الضيفان، وكان عمَّ سيدنا لوط النبي، وكان أهل الأرض جميعًا كافرين إلا إبراهيم ولوط وسارة، وفي سورة العنكبوت عرض طويل لنقاش إبراهيم مع قومه.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧].

حوالي ٢٠ آية من الحوار، والنتيجة ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وتعرض سورة مريم لأحد مواقف نقاشه مع أبيه، وهو أحد المواقف التي عرض القرآن الكثير منها في سورة الأنبياء، وفي سورة الصافات: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]. وفي سورة الأنعام أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

واتخذ لنقاشهم طريقة عملية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، ثم



القمر، ثم الشمس، وبعد أن بيَّن لهم أن كل ما هو أعظم من الأصنام التي يعبدونها لا تصلح آلهة أعلن فيهم إيمانه: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩].

هذه جوانب من نقاش إبراهيم مع أبيه وقومه، وقد صرح القرآن باسم أبيه في سورة الأنعام مرة واحدة وهو آزر، والتوراة تقول: إن اسم أبيه تارخ. وقالوا: إن له اسمين آزر وتارخ. ونحن نؤمن بما جاء في القرآن خاصة عند اختلافه مع الكتب السابقة(١)

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

والصِّديق من الصدق والتصديق وهي الطاعة لأوامر الله دون نقاش فالصديق ليس الذي يَصْدُقْ وإنما هو الذي يُصَدِّق وكلها من صفات إبراهيم وهو نبي من أولي العزم والصِّديقيَّة صفة إشراقية ذاتية يهبها الله تعالى لعبده مثل مريم الصِّدِّيقة التي صدَّقت ببشارة الله لها بعيسى. . وأبي بكر الصديق الذي صدق بنبوة محمد ﷺ في كل مواقفها ولا يلزم أن يكون الصديق نبيًّا. أما النبوة، فهي عطاء وتشريع يأتي من أعلى، وهدى يأتي من السماء، واصطفاء من الله واختيار(٢). ويبدأ القرآن في عرض الصورة الحِوارية بينه وبين أبيه، والتي يقوم بها من منطلق النبوة.

---

(١) سيأتي بيان أن آرز هو عمه وليس أبيه وبيان لماذا نسبه القرآن إليه بالأبوة؟

(٢) تفسير الشعراوي (١١٤/ ٩٠٩٧).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]

وواضح التلطف في نداء إبراهيم ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ والأصل في العبادة أن تكون للأعلى فلماذا يتوجَّه الكافر لعبادة مَن هو أقل من الإنسان، بل من الحيوان، ما لا يسمع ولا يبصر، ولا حول ولا قوَّة له؟

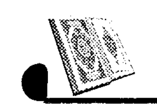
وكذلك يبدو من أسلوب الاستفهام (لم تعبد؟) الرغبة في عدم إشعار أبيه بالجهل وأنه يعلم أكثر منه.

وواضح التعريض بالمشركين في مكة الذي نزل هذا القرآن عليهم وإظهار جهلهم بعبادتهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]

هذا الذي أقوله ليس من عندي إنما هو من عند الله، ورغم صغر سنِّي فقد هداني الله، والهدى فوق أي شيء، فلا عليك إن تتَّبعني أهديك إلى طريق سوي. فأنا لا أتعالم عليك إنما العلم من عند الله يؤتيه من يشاء.

ونلاحظ أن إبراهيم نادى أباه بهذا النداء المتحنن (يا أبت) أربعة مرات في آيات متقاربة وذلك حرصًا على هدايته وأن يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم.



وإلا فإنه الطريق الآخر، وهو عبادة الشيطان: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤].

ومن قبل قال له: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾. وهنا يقول له: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾. ذلك لأن الشيطان سبب في عبادة الأوثان، فبدأ تحليليًا في بيان شكل المعبود النهائي، وكيف يأبى العقل أن يعبد مثل هذا الذي لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني شيئًا.

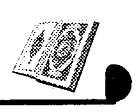
وهي حقيقة لا يستطيعون الجدال فيها، فهذه هي الأصنام، وتلك هي صفاتها.. فلمَّا أقرُّوا بذلك بَيَّنْ إبراهيم الدافع الأصلي والعبادة الأصلية ولمن تتوجه.. إن الحقيقة المؤلمة أن أباه (يعبد الشيطان)، فإذا كان بدأ معه ببيان أنه يعبد الشيطان. لكان استنكر ذلك وكذبه، ولكن الآن لا مجال للإنكار.

ثم يزيد إبراهيم الأمر توضيحًا، أنك تعبد وتتقرَّب إلى الله بمن عصى الله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤] ليس مجرد عاصٍ، بل عصيًّا مُعاندًا موغلًا في عصيانه.. فمن يقبل أن يعبد مثل هذا؟!

وواضحٌ تَكْرار صفة الله (الرحمن) لنوع من تليين القلب، وتذكيره بربِّهِ الودود الكريم.

وواضح المقابلة بين الرحمن والشيطان.

وأن الرحمن يعذِّب أيضًا فرحمته ليست عن ضعف.



ويكفي عذابًا للإنسان أن يوالي الشيطان.

وهداية الله لعبده نعمة.

وواضح أن طاعة أي مخلوق تُعتبَرَ عبادة له ما دام يأمر بأمر بعيد عن نهج الله.

وواضح استمرار تلطف إبراهيم بأبيه.. ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ فإن مجرد تصوري أن يمسك العذاب يؤلمني.. وأنه مجرد أن تعذب بسبب الشيطان تصبح من أوليائه فتعذب مثل ما يعذب.

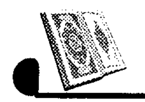
وتنتهي المحاورة الحانية المرتبة اللطيفة التي راعيت جوانب النفس البشرية. وصدق من قال: (النصح ثقيل فلا ترسله حبلًا ولا تجعله جدلًا) وقالوا: الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(١) [مريم: ٤٦]

ومقابل هذا اللين وهذه الرقة وهذا اللطف من إبراهيم تكون القسوة والتهديد والوعيد من أبيه.

---

(١) الفعل **(رغب)** يحمل المعنيين حسب حرف الجر.. **(فرغب في)** أي: أحبه وأراده **(ورغب عن)** أي: كرهه واعتزل عنه **وراغب** إلى أبلغ من راغب في فالأولى مجرد دافع داخلي وحسب، أما الثانية فتجمع الدافع الداخلي والحركة الموصلة إلى من يحب كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي آخذين الوسيلة الموصلة إليه.



فبالاتهام بالجهالة تلقَّى آزر الدعوة إلى الهدى، وبالقسوة قابل القول المؤدَّب المهذَّب، وبالتهديد واجه الابن الراعي المتودد وكان حال إبراهيم هو حال القلب الذي أدبه الإيمان، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وواضح أنها وسيلة الكفار مع الرسل والدعاة استخدام أقسى أنواع التعذيب وهي الرجم، وورد ذلك مع رسل سورة يس إذ قال لهم قومهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ [يس: ١٨] وكذلك حذر من ذلك أهل الكهف قالوا ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف: ٢٠].

وتشتد القسوة عندما يدفع الرجل إبراهيم دفعًا قائلاً ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي زمنًا طويلاً ممتدًا.

ولم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يَفْقد برَّه وأدبه مع أبيه قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

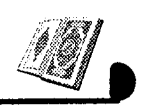
وواضح المعنى .. أما أنا فلن ينالك منِّي مكروه.

سلام عليك فلا جدال ولا أذى.

سلام عليك فلا ردَّ على وعيدك وتهديدك.

وأكثر من ذلك: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

فيفتح إبراهيم بابًا مع أبيه لم يُغلقه بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾، بل تركه مفتوحًا، فهو سلام وابتعاد، كما يُحب الأب، ولكن لأن



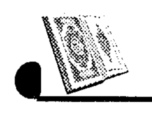
إبراهيم يُريد الخير لأبيه ولا زال يطمع في هذه، فإنه وإن ابتعد بجسده فلايزال عقله وقلبه مشغولين بهدايته والاستغفار له.

وزيادة في الأمل يُبيِّن إبراهيم أن دعاءه مقبول عند الله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، أى: راضٍ عنه، وهو مقبول لديه. ساعدني فقط يا أبتِ على قَبُول ذلك بالاستجابة إلى داعي الله، وترك الشِّرْك في عبادته.

واستغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبعد أن رزق إسماعيل وإسحاق، وبعد أن بنى المسجد الحرام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ولكن وضحت صورة الأب الذي أصرَّ على كفره، فعندئذٍ تبرَّأ منه إبراهيم، وقد وَضَّحَ الله ذلك للمؤمنين فقد كانوا يستغفرون لأهليهم من المشركين، فبيَّن الله أنهم مأمورون ألا يتأسوا بإبراهيم في هذه:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].



آزر هل هو أبو إبراهيم؟

وينقل لنا الرسول ﷺ من مشاهد الغيب مشهد لقاء إبراهيم بأبيه يوم القيامة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[١].

ويتعارض كون «آزر» الذي صرَّح القرآن باسمه هو أبو إبراهيم مع قوله ﷺ: «**ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات**». ومحمد ﷺ هو ابن إسماعيل بن إبراهيم.. وقول

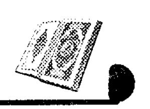
---

(١) رواه البخاري رقم(٣٢٧٢)، (٤٤٩٠)، (٤٤٩١)، مشكاة المصابيح (٣/ ٢٠٤) (٥٥٣٨)، والأبعد: أي شديد البعد من الله.

ذيخ: وهو ذكر الضبع وفي رواية ذبح.

وفي رواية: «فيمسخ الله أباه ضبعًا» ومتلطخ في دن أو طين.

وفي رواية يسأل إبراهيم: هذا أبوك؟ فيقول: لا ويتبرأ منه.



الله في «آزر» : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾، والمشهد الذي ذكرناه لـ « آزر » يوم القيامة يتعارض مع طهارة الصلب بعد إبراهيم؛ فكيف يكون في آباء محمد ﷺ كافر؟ وبالنظر إلى معنى أب في القرآن نجد قول يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ . . فنجد القرآن أطلق الأب على الأب المباشر (يعقوب)، وعلى الجد (إسحاق)، وعلى أبي الجد (إبراهيم).

ونجد قول يعقوب في موته: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، فهنا يُطلق القرآن الأب على الأب المباشر (إسحاق)، وعلى الجد (إبراهيم)، وعلى العَمِّ (إسماعيل).

يقول الشيخ الشعراوي: إنه إذا كان ذكر «آزر» في القرآن كله بلفظة «أبيه» لكان أباه المباشر. . ولكن أن يقول ولو مرة واحدة: «لأبيه آزر . .»، فهذا يعني أن المراد ليس أباه المباشر. . ونُلاحظ ذلك في كلامنا إذا أردنا الأب المباشر نقول: «جاء أبوك» هكذا بلا تعريف ودون تسمية. . أما إذا أردنا الأب غير الحقيقي نقول: «جاء أبوك فلان».

وبناءً عليه فإن تسمية القرآن لأبيه - ولو مرة واحدة - لإثبات أن «أبيه» في بقية الآيات -ومنها آيات سورة مريم- ليس أباه



المباشر، وإنما هو عَمُّه.. فيسلم لرسول الله ﷺ طهارة نسبه، ونقاء سلسلته إلى آدم عليه السلام[(١)].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]

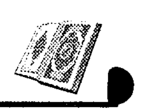
الاعتزال جائز في الأمم السابقة، والدعوة واجبة في أُمَّة محمد. ولقد تنقل إبراهيم في هجرات متتالية حفاظًا على دينه ألا يفتنه الكافرون حتى وصل في النهاية إلى أرض فِلَسْطين، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ونلاحظ هنا أن إبراهيم قال لهم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]. وكان قد قال لأبيه: ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾. فترك الاسم العام (العبادة)، وذكر هنا أعلى درجاتها، وهى الدعاء.. فلقد وصل

---

(١) تفسير الشعرواي (٩٠٩٦/١١٤).

وهو تعريف جيد للمعنى، إلا أن الأمر لا يحتاج كل هذا، فقد اختلف العلماء في تسمية أبي إبراهيم، وهو آزر، حتى قالوا: إن آزر هو اسم الصنم الذي كانوا يعبدونه. راجع تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٤٩). ويكفينا في إثبات طهارة نسبه ﷺ ما قاله وأخبر عنه ﷺ في ذلك.



الأمر بكم إلى الاستغناء التام عن الله تعالى حتى أصبحتم تدعون أوثانكم، وتطلبون منها.. أما أنا، فسوف أدعو ربي، وكلي يقينٌ أن من يدعو الله سبحانه لن يشقى، والعكس صحيح.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

ويستجيب الله لنبيه إبراهيم، ويُحقق رجاؤه فيه، وتتوالى النعم منه سبحانه وتعالى عليه:

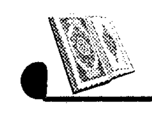
١- وهب له إسحاق من زوجته سارّة العجوز العاقر.

ولم يذكر هنا إسماعيل؛ لأن إسحاق كان جزاءً من الله لإبراهيم على صبره على مسألة ذبح إسماعيل. ففداه بذِبْحٍ عظيم[(١)].. ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢].

٢- وهب له يعقوب حفيدًا من إسحاق ابنه.. وهو مبالغة في الكرم من الله، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

---

(١) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. [الصافات: ١٠٣-١٠٧]. ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فكانت كرامة التسليم لإسماعيل وإسحق الجزاء.

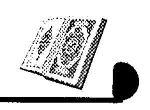


٣- أرسل إليهما بالنبوة، وهي نعمة عظيمة، واصطفاء من الله.. وهو نفس طلب زكريا: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]، فكلهم يحرصون على امتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها.

٤- وهبه النبوة من رحمته سبحانه، وأشاعها في ذريته، فأصبح معظم الأنبياء من ذرية إبراهيم.

٥- استجاب له دعوته عندما دعا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٣-٨٤]. فوهبه لسان صدق عليا.. فما ذكر إبراهيم في ملّة من الملل هو أو ذريته إلا قوبلت بالاحترام والإجلال والثناء الحسن والسيرة الطيبة.

* * *



موسى وهارون:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥١].

وموسى من فرع يعقوب بن إسحاق.

﴿مُخۡلَصٗا﴾ أي: استخلصه ربه لنفسه من وسط بني إسرائيل وقال فيه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١].

ومن ملامح استخلاصه أنه لا سيطرة لإبليس عليه فإنه من المستثنين من الغواية ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

والرسول مأمور بإبلاغ الدعوة للناس، والنبي ليس مأمورًا بإبلاغ الناس، إنما هو متلق من الله فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

وقصة موسى من أكثر قصص الأنبياء ذكرًا في القرآن لأن غرض القصص هو تثبيت النبي ﷺ ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: ١٢٠] وموسى من أكثر الأنبياء معاناة مع بني إسرائيل وقصته تدريب عملي للنبي محمد ﷺ على الصبر على كفار مكة.



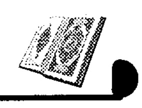
ويعرض الله سبحانه هنا جانبًا سريعًا من قصة موسى، وهو نداءه من جانب الطور الميمون باليمن والبركة فهو الأيمن أي الأكثر يمنًا وقُرْبَه من الله وتفصيل القصة في سورة القصص عندما رحل موسى بزوجته بعد انتهاء السنوات التي اتفق عليها مع أبيها وأراد أن يعود إلى قومه.. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩، ٣٠].

كما أن هناك تفصيل لنفس الموقف في سورة طه..

وكان هذا هو أول كلام لله مع موسى على الطور فاستحق التسجيل كعلامة بارزة لقصة موسى وأول مناجاة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ عن قرب شديد.

وهكذا تتعدد رحمة الله بموسى بنعمه المتتالية عليه:

- فهو مُخْلَصْ.
- وهو رسول.
- وهو نبي.
- خصه بالكلام والمناجاة.



ويزيده هبة أخرى. . ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

يقول ﷺ: «**ما شفع أحد شفاعة في الدنيا مثل شفاعة موسى أن يكون هارون نبيًا**».

ولاحظ الرحمة في الاستجابه لموسى بالإرسال إلى هارون ليُعاونه في مواجهته لفرعون.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩- ٣٦].

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

* * *

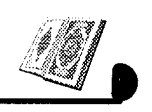


إسماعيل وخاتم النبوة:

ثم يعود القرآن للفرع الأول من شجرة النبوة إسماعيل بن إبراهيم البكر الذي استودعته العناية الإلهية عند البيت الحرام، ونبتت ذريته هناك بعيدًا عن صراعات بني إسرائيل وانحرافاتهم ومعاناة أنبيائهم معهم، لقد كان دين إبراهيم هناك في تلك البقعة المباركة في وادٍ غير ذي زرع عند البيت الحرام محفوظًا تتوارثه الأجيال من ذرية إسماعيل ومن عاش معهم من العرب، وقد ذكرت قصة نبي الله إسماعيل في القرآن متداخلة مع قصة أبيه إبراهيم، وأشهر مواقف إبراهيم مع ابنه إسماعيل ثلاثة:

الأول: حين تركه مع أمه هاجر بأمر الله في وادي مكة، حيث لا ماء ولا زرع، ورعاية الله له بتفجير زمزم، وإقبال الناس عليهم لتعمير هذا الوادي: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الثاني: أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه، حيث أوحى إليه في منامه بذلك، واستجابة إبراهيم وإسماعيل وهاجر للأمر: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ



مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٩].

الثالث: عهد الله لإبراهيم وابنه إسماعيل ببناء بيته في البلد الحرام، واستجابتهما للأمر، وقيامهما به على خير وجه: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٩].

الحج والأسرة الكريمة:

ولقد خلّد الله تعالى مواقف هذه الأسرة المباركة إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل التي أظهروا فيها كل استسلام لأمر الله وتصديق برسالته إليهم في عبادة عظيمة له وهي الحج، فكل



تفاصيل الحج هي عبارة عن إعادة لمواقف إبراهيم وهاجر وإسماعيل، ولقد توارثتها الأجيال حتى تسلمتها أمة محمد ﷺ فأعادها الله لهم حنيفية سمحة بلا تحريف ولا انحراف: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]

وتذكر السورة هنا ملمحًا من ملامح قصة إسماعيل في موكب الأنبياء.

وأهم صفة من صفات إسماعيل أنه كان صادق الوعد، وهي صفة في جميع الأنبياء، ولكنها تتضح مع إسماعيل عندما قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الصافات: ٦٩]، وهذا وعد في سبيله الموت، ولكنه أوفى به كاملاً: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

صادق الوعد:

توجد قصة واحدة رويت عن إسماعيل وعن رسول الله ﷺ أن إسماعيل عليه السلام وعد رجلًا مكانًا أن يأتيه، فجاء ونسي

الرجل، فظلَّ به إسماعيل، وبات، حتى جاء الرجل من الغد فقال: ما برحت ها هنا؟ (أي: ما تركت المكان) قال: لا. قال الرجل: إني نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني.

ونفس الموقف حدث لرسول الله ﷺ فقال: «**يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَا هُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ**»(١).

وهذه قمة صدق الوعد، وعكسه هو خلف الوعد، والله يعاتب في ذلك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ١- ٣].

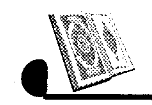
وقد عدّه الرسول ﷺ من آيات النفاق: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(٢) ومنبع هذا كله الكذب.

والرسول ﷺ كان يحب صدق الوعد ويشكر عليه وإن كان من كافر.

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٧١٧) (٤٩٩٦) وقال الألباني: ضعيف الإسناد والبيهقي (١٠/ ١٩٨) (٢٠٦٢٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣) (٢٥٣٦)، ومسلم في الإيمان باب بيان خصال المنافق رقم (٥٩).



قال المسور سمعت النبي ﷺ ذكر صِهْرًا له فأثنى عليه في مصاهرته فأحسن، قال: «**حَدَّثَنِي وَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي**»(١).

ووصف الله إسماعيل بأنه رسولًا نبيًا.

ووصف زكريا ويحيى وعيسى وإسحاق ويعقوب وهارون بأنهم أنبياء، وموسى وإسماعيل رسل أنبياء، وإبراهيم وإدريس وصفا بوصف صديقًا نبيًا. وكما بينا أن الرسول مأمور أن يبلغ الناس برسالته أما النبي فليس مأمورًا بالتبليغ وإنما بأن يعمل برسالته.

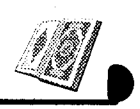
﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]

الصلاة هي بداية التعامل مع الله. والله سبحانه وتعالى لا يذكر صفة ويبرزها إلا إذا كانت بارزة عند صاحبها جدًا.. وكانت ذو مكانة عنده سبحانه وتعالى تساوي النبوة والرسالة وصدق الوعد.

فمن أراد أن يكون ضمن هؤلاء فعليه الاهتمام بالصلاة والزكاة وأن يأمر أهله بهما.

(١) رواه البخاري (٣٥٢٣)، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٨٨٤).

ويقصد العاص بن الربيع زوج ابنته زينب وكان قد أطلق ﷺ صراحة بعد أن أسره في بدر. وفدته زينب التي كنت في مكه فطلب منه النبي ﷺ أن يرسلها إليه فوعده العاص وكان على كفره وانطلق إلى مكه حيث أرسل زينب مهاجره إلى أبيها ﷺ.. ثم أسلم بعد ذلك.



﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣١].

والاهتمام بوصية الأهل وإنقاذهم من النار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال رسول الله ﷺ: **«مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»**(١).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»**(٢).

صلاة وزكاة:

«إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ»(٣).

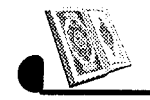
والربط بين الصلاة والزكاة دائم في القرآن، والزكاة نماء المال

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٧) (٦٧٥٦) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) رواه أبو داود (١/ ٤١٨) (١٣٠٨) وقال الألباني: حسن صحيح وأحمد (٢/ ٢٥٠) (٧٤٠٤) وابن حبان (٦/ ٣٠٦) (٢٥٦٧).

(٣) رواه أبو داود (١/ ٤٥٩) (١٤٥١) وابن ماجه (١/ ٤٢٣) (١٣٣٥).



وبركته والصلاة نماء الوقت والعمر وبركته.. ودقائق الصلاة هي بزور البركة في الوقت كله.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

إنه المقام العالي لإسماعيل فهو مرضي عنه.. مقبولًا قبولًا حسنًا.

إدريس:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

إدريس أوَّل نبي بعد آدم وشيث، وشيث معناه هبة الله حيث وهبه الله، لآدم بعد مقتل هابيل، وأوحى إليه بالنبوة، فكان أوَّل نبي بعد آدم، وبعد عدَّة أجيال أوحى إلى إدريس واسمه في التوراة خنوخ.

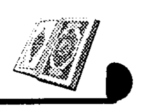
عن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِائَةَ صَحِيفَةٍ وَأَرْبَعَةَ صُحُفٍ... عَلَى شِيث خَمْسِينَ صَحِيفَةً**»(١).

وإدريس ضمن الأنبياء الصديقين مثل إبراهيم.. وهو نبيٌّ لأنه قريب عهد بآدم وشيث فلازالت رسالتهم قائمة والنبي يسير على عهد الرسول قبله.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

---

(١) رواه ابن حبان في الثقات (٢/ ١٢٠) وانظر تاريخ دمشق (٢٣/ ٢٧٤، ٢٧٨).



قالوا: رُفِعَ ولم يمت مثل عيسى. وقالوا: رُفِعَ ومات في السماء. وقالوا: رُفِعَ المكانة والمنزلة. وقالوا: رُفِعَ إلى الجنة.

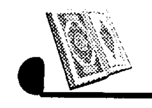
وفي حديث الإسراء أن رسول الله رآه في السماء الرابعة، فقال له: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح. رغم أن آدم وإبراهيم قالوا: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح. وهذا من التواضع ومعرفة منزلة محمد ﷺ.

حداء الموكب:

وهكذا اكتمل الركب.. وتجهز الموكب للمسير وانطلق الحداء أمامه بتسبيح وتكبير وتهليل.. إنه موكب الأنبياء الذين أنعم الله عليهم.. فمن يلحق يلتحق ومن يجد يصل..

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

لقد بسط الله بالشرح لعطائه للبشرية ورحمته وهباته من خلال بعض الأنبياء حاملي بشائر النور والهدى والتوحيد، ثم يجمع هذه الصحبة الطيبة في علامات مضيئة فيفسر العلماء قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ حيث بداية التوحيد والمعني به إدريس: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ لاستمرار التوحيد، ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو أبو الأنبياء إسماعيل وإسحاق، والذي جاء بعد نوح ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ هو يعقوب



وهو ابن إسحق أبو بقية أنبياء بني إسرائيل وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى أنبياء إسرائيل الكبار حيث يبين الله تعالى اصطفاؤهم. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

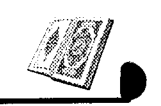
الرحمن:

ولازالت السورة تدور على اسم الله الرحمن.. فهي آيات الرحمن حيث أن آيات الله تحمل منهاجًا وتكليفًا.. فقرنها بالرحمن ليبين أنه ما كلفهم المشقه وإنما كلفهم السعاده في الدارين والرحمه.

ولذلك فهم الأنبياء ذلك وعرفوا واجبهم نحوه وهو الشكر والحمد فعبروا عن شكرهم بأسمى سلوكياته وهو السجود.. ولم يكن مجرد سجود وإنما هو انفعال داخلي جعلهم يخروا بكل حواسهم في سجود مستمر دائم ﴿سُجَّدًا﴾ مقترنًا بانفعال آخر لا يعلم مذاقه وحلاوته إلا من عاشوه... ﴿وَبُكِيًّا﴾.

وهذا الحال عبر عنها القرآن في أكثر من موقف حسب حال المؤمنين فالعلماء هم أو من يستشعر هذا الحال...

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].



وأهل الكتاب الصادقين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢].

والذين يخشون ربهم لهم أيضًا حال مع القرآن ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذكر الله عمومًا إطمئنان للقلوب وخشوع للأبد واستقرار لما في الصدور ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].





سجود التلاوة

وشرع السجود عند هذه الآية اقتداءً بهؤلاء المهتدين المجتبين، وكان عمر رضي الله عنه يسجد ويقول: ذلك السجود، فأين البكاء؟![١].

ومن قرأ آية سجدة أو سمعها يستحب له أن يُكبِّر ويسجد سجدة، ثم يُكبِّر للرفع من السجود، وهذا يسمى سجود التلاوة، ولا تشَهُّدَ فيه ولا تسليم. فعَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ فَإِذَا مَرَّ بِالسَّجْدَةِ كَبَّرَ وَسَجَدَ وَسَجَدْنَا**»[٢]. وقال عبدالله بن مسعود: إذا قرأت سجدة فكبِّر واسجد، وإذا رفعت رأسك فكبِّر.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ[٣] أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**»[٤].

(١) تفسير ابن كثير(٥/ ١٤٩).

(٢) رواه أبو داود (١/ ٤٤٨) (١٤١٣) والبيهقي (٢/ ٣٢٥) (٣٥٩٢).

(٣) الويل: الهلاك، يقصد نفسه: أي: يأخذي الشيطان وهلاكه.

(٤) رواه مسلم (١/ ٨٧) (٨١)، وابن ماجه (١/ ٣٣٤) (١٠٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٣) (٩٧١١).

وذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع، فعن عمر أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة؛ فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة المقابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا لم نؤمن بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**»[١]. وفي لفظ «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ».

عن زيد بن ثابت قال: قرأت على النبي ﷺ «والنجم» فلم يسجد فيها[٢]. ورجح الحافظ في الفتح أن الترك كان لبيان الجواز، ويؤيده. عن أبي هريرة أنه قال: إن النبي ﷺ سجد في سورة «النجم» وسجدنا معه[٣].

وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ «والنجم» فسجد فيها، وسجد من كان معه، غير أن شيخًا من قريش أخذ كفًّا من حصى

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٦٦) (١٠٢٧) ومالك في الموطأ (٢/ ٢٥) (٢٦٧) وابن خزيمه (١/ ٢٨٤) (٥٦٧).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٨٦) (٢١٦٦٥) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين والبيهقي (٢/ ٣١٣) (٣٥٢٠).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٥٧) (٦٤٦١) وأبو داود (١/ ٤٤٨) (١٤١٣) والدارمي (١/ ٤٠٧) (١٤٦٦). قال الحافظ في الفتح: ورجاله ثقات



أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا. قال عبدالله: فلقد رأيته بَعْدُ قتل كافرًا[1].

مواضع السجود:

مواضع السجود في القرآن خمسةَ عَشَرَ موضعًا. فعن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ: «أَقْرَأَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَجْدَةً فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا ثَلَاثٌ فِي الْمُفَصَّلِ، وَفِى سُورَةِ الْحَجِّ سَجْدَتَيْنِ»[2].

وأولها في الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وآخرها ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩][3].

شروط السجود:

واشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة، من طهارة، واستقبال قبلة، وستر عورة.

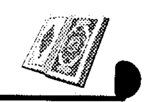
وقال الشوكاني: ليس في أحاديث سجود التلاوة ما يدل على

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٦٣) (١٠١٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة رقم(٥٧٦).

(٢) رواه أبو داود (١/ ٤٤٥) (١٤٠١) وابن ماجه (١/ ٣٣٥) (١٠٥٧) والدارقطني (١/ ٤٠٨) (٨) وحسنّه المنذري والنووي .

(٣) وبينهما في النحل (٤٩)، الإسراء (١٠٧)، مريم (٥٨)، آيتان في الحج (١٨ ، ٧٧)، الفرقان (٦٠)، النمل (٢٥)، السجدة (١٥)، ص (٢٤)، فصلت (٣٧)، النجم (٧٢)، الانشقاق (٢١)، وهي مشار لأماكنها في المصاحف .



اعتبار أن يكون الساجد متوضئًا، وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدًا منهم بالوضوء، ويبعد أن يكونوا جميعًا متوضئين، وأيضًا قد كان يسجد معه المشركون، وهم أنجاس لا يصح وضوءُهُم.

وقد روى البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير وضوء.

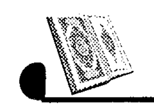
وأما ما رواه البيهقي عنه بإسنادٍ قال في الفتح: إنه صحيح، أنه قال: «لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر»، فيجمع بينهما بما قاله الحافظ من حمله على الطهارة الكبرى، أو على حالة الاختيار، والأول على الضرورة، وهكذا ليس في الأحاديث ما يدل على اعتبار طهارة الثياب والمكان.

وأما ستر العورة والاستقبال مع الإمكان، فقيل: إنه معتبر اتفاقًا. قال في الفتح: لم يوافق ابنَ عُمَرَ أحدٌ على جواز السجود بلا وضوء إلا الشعبي، أخرجه ابن أبي شيبة عنه بسند صحيح.

وأخرج أيضًا عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه كان يقرأ السجدة ثم يسجد وهو على غير وضوء إلى غير القبلة، وهو يمشي يُومئ إيماء.

دعاء السجود:

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك إلا حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن: «سجد وجهي للذي خلقه وشقَّ سمعه



وبصره بحوله وقُوَّته فتبارك الله أحسن الخالقين»[١]. على أنه ينبغي أن يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى، إذا سجد سجود التلاوة في الصلاة.

ويجوز للإمام والمنفرد[٢] أن يقرأ آية السجدة في الصلاة الجهرية والسرية ويسجد متى قرأها.

عن أبي رافع قال: «صليت مع أبي هريرة صلاة العَتمَةِ -أو قال صلاة العشاء- فقرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد فيها، فقلت: يا أبا هريرة، ما هذه السجدة؟ فقال: سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه»[٣].

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ سجد في الركعة الأولى من صلاة الظهر، فرأى أصحابه أنه قرأ (آلم تنزيل) السجدة[٤].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٤) (٧٧١) وأبو داود(١/ ٤٤٩)، (١٤١٤) والترمذي (٢/ ٤٧٤) (٥٨٠) والنسائي (٢/ ٢٢٢) (١١٢٩) وأحمد (٦/ ١٧) (٢٥٨٦٣) والدارقطني (١/ ٤٠٦) (٢).

(٢) وعلى المؤتم أن يتابع إمامه في السجود إذا سجد وإن لم يسمع إمامه يقرأ آية السجدة، فإذا قرأها الإمام ولم يسجد لا يسجد المؤتم، بل عليه متابعة إمامه؛ وكذا لو قرأها المؤتم أو سمعها من قارئ ليس معه في الصلاة فإنه لا يسجد في الصلاة، بل يسجد بعد الفراغ منها .

(٣) رواه أحمد(٢/ ٢٢٩) (٧١٤٠).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٨٣)، (٥٥٥٦)، وأبو يعلى (١/ ١١٣)، (٥٧٤٣)، والبيهقي (٢/ ٣٢٢)، (٣٥٧٧).

قال النووي: لا يكره قراءة السجدة عندنا للإمام كما لا يكره للمنفرد، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية، ويسجد متى قرأها. وقال مالك: يكره مطلقًا. وقال أبو حنيفة: يكره في السرية دون الجهرية. قال صاحب البحر: وعلى مذهبنا يستحب تأخير السجود حتى يسلم لئلا يهوّش على المأمومين.

ويسجد سجدة واحدة إذا قرأ القارئ آية السجدة وكررها أو سمعها أكثر من مرة في المسجد الواحد، بشرط أن يُؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة، فإن سجد عقب التلاوة الأولى، فقيل: تكفيه. وقيل: يسجد مرة أُخرى لتجدد السبب.

يرى الجمهور أنه يستحب السجود عقب قراءة آية السجدة أو سماعها، فإن أخَّر السجود لم يسقط ما لم يطل الفصل. فإن طال فإنه يفوت ولا يقضى[١].



(١) راجع فقه السنة، السيد سابق، ج١ صـ ١٨٥- ١٨٩ .



٩
الخلوف الضائعة

لقد انتهت قصة السابقين، واتضحت طبيعة الصراع بين الأنبياء وأقوالهم ممن كذبوا وكفروا بهم، وواضحٌ أن ذلك كله كان تمهيدًا لبيان الوضع الحالي، وهو موقف كفار مكة من دعوة الرسول الخاتم ﷺ..

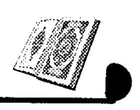
﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]

هذه هي صورة من جاءوا بعد مسيرة الأنبياء السابقة.. وهي صورة كل من يبعث لهم رسول ويطول عليهم الأمد.. وهي الصورة التي جاء إليها محمد مرسلًا..

إنهم أصبحوا خَلْف (بسكون اللام) وهم شرار القوم، وهي غير خَلَف.. أي: تخلف وجاء بعده.. سواء بالخير أو الشر.

يقول الشاعر:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ



فماذا ننتظر من هذا الخَلْف الشرير؟!

- أضاعوا الصلاة.

- اتبعوا الشهوات.

أضاعوا الصلاة:

وبمراجعة بسيطة لمسيرة الأنبياء نجد التركيز الشديد على الصلاة.

فكانت وصية يحيى ضمن الخمس كلمات التي أمره الله أن يبلغهم لقومه ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾.. وكان أمر الله لمريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.. وكان من بيان عيسى لنفسه عندما كَلَّمَ قومَهُ في المهد: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.. وكان إسماعيل ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.. وكان الأنبياء جميعًا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾.

والسجود أظهر ملامح الصلاة..

فكانت أول صفة تدل على شرِّ هذا الخَلْف في مخالفتهم لمسيرة الأنبياء أن ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

والصلاة من الأركان التي لا تسقط عن المسلم بأي حال من الأحوال.

فالزكاة تسقط إذا لم يبلغ النصاب.

والصوم يسقط إذا كان مريضًا لا يُرجى برؤه.



والحج يسقط عمن لم يستطع إليه سبيلًا.

أما قول الشهادة والصلاة، فلا يسقطان عن المسلم أبدًا.

أرأيتم أن أحدكم يلبس قميصًا ذا أزرار هل يستطيع أحد نزعه عنه ما دامت أزراره وعُراه متشابكة.. فإذا انقضت آخر عروة كان سهلًا أن ينزع عنه، هكذا مثل رسول الله ﷺ موقع الصلاة من قميص الإسلام، فقال ﷺ: «**لتنقض عرا الإسلام عروة عروة، فأولها نقضًا الحكم، وآخرها نقضًا الصلاة**»(١).

فإذا نقضت عروة الصلاة وضاعت كان من السهل خلع قميص الإسلام.

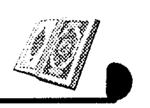
واتبعوا الشهوات:

وإن كانت هذه صفة مستقلة بذاتها، ولكن واضح أنها نتيجة أيضًا لإضاعة الصلاة.. والصورة التي عرضها السلف لاتباع الشهوات هي صورة الانفلات الجنسي الذي نرى الكثير منه في زماننا هذا، وفي كل حضارة في سبيلها للانهيار..

نقل ابن كثير عن مجاهد في معنى ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قال: يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٣٢) (١٨٠٦٨) وابن حبان (١٥/ ١١١) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٤) (٧٠٢٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨).



السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض[١].

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ صفة أخرى في هؤلاء الذين يتبعون الشهوات؛ وهي عَلاقتهم بالقرآن، يقول ﷺ: «ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ».. والمؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يتأكل به[٢].

ويصف كعب الأحبار هؤلاء في قوله:

(والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل شرابين للقهوات (أي: الخمر)، تَرَّاكين للصلوات، لعَّابين بالكعبات (إشارة إلى انفلاتهم الجنسي)، رقّادين عن العتمات (صلاة العشاء والفجر)، مُفرّطين في الغدوات (أي: الذهاب إلى المساجد)، ترّاكين الجماعات.. ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

وهي صورة مفصلة فاضحة لأجيال عابثة لا تحمل على أكتافها أية مسؤلية، وتخلو قلوبها من أي إيمان.

وأوحى الله إلى داود: «إن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي»[٣].

---

(١) ابن كثير (٥/ ١٥٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٣٨).

(٣) ابن كثير (٥/ ١٥١).



﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قالوا: غيًّا: خسرانًا. وقالوا: شرودًا وضياعًا، واشتهر أنه اسم وادٍ في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم، ويتَّضح معنى الغيِّ من ورودها في القرآن في مثل قوله تعالى:

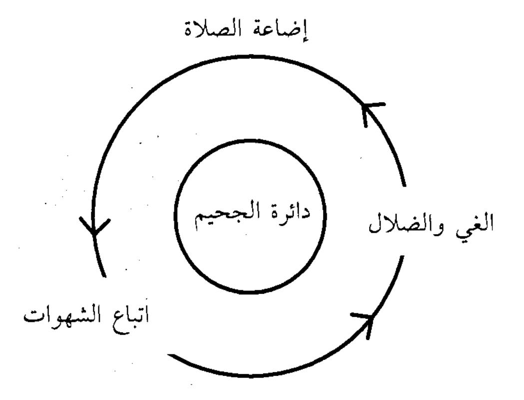
﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاًۚ﴾ [البقرة: ١٤٦].

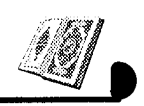
﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].



فالغي هو الإمعان في الضلال والضياع فإضاعة الصلاة تؤدي إلى اتباع الشهوات فتؤدي إلى الغي والضياع، وواضح أن ذلك

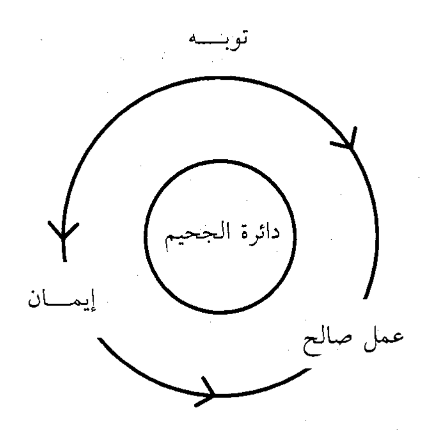


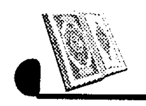
عذاب في الدنيا ولا يبعد أن يكون عذابًا في الآخرة أيضًا ترك الله تصوره للقارئ فما ظنكم أن يكون شكل العذاب الذي سببه الغي والضلال المستمر؟

ولم يُرْوَا حَدِيثٌ صحيح في أن معناها واد في جهنم.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: ٦٠].

وهذه مقدمات يؤدِّي بعضها إلى بعض التوبة، التي لا تكون إلا بإيمان، ولا تُقْبَلُ إلا بعمل صالح يَجُبُّ ما قبلها، وقد فهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص هذا المعنى فأبوا إلا أن يفعلوا في الإسلام ما يَجُبُّ ما فعلوه في الجاهلية.





صـــلاة التوبـــة:

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ثُمَّ يُصَلِّي** [وفي رواية: ركعتين] **ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ لَهُ**»(١). ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

وهكذا يفتح الله تعالى بابًا من التوبة لا يغلق ليعود هذا الخلْف إلى متابعة السير مع مسيرة الخير.

هل الأفضل نسيان الذنب أم تذكره؟

قال ابن القيم: إذا أحس العبد العُجْبَ من نفسه فليذكر ذنبه، وإن كان في حالة فرح بالله وشوق إلى لقائه فالأفضل نسيانه.

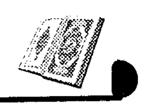
التـوبـة المتهمــة:

بين ابن القيم أنواع التوبة الناقصة وأشكالها والتي منها:

- الذي تاب محافظة على الحال لا خوفًا من ربِّ الجلال.

---

(١) رواه الترمذي (٢/٢٥٧) (٤٠٦) وابن ماجه (١/٤٤٦) (١٣٩٥) وابن أبي شيبة (٢/١٥٩) (٧٦٤٢).



- والذي تاب لضعف داء المعصية في نفسه.

- والذي تاب مخافة على حاجة.

- والذي تاب لأي عِلَّة لا خوفًا من الله وتعظيمًا لحرماته وخشية من الطرد من رحمته.

هذا صاحب توبة متهمة.

ومن اتهام التوبة ضعف العزيمة بعدها.. والتفات القلب إلى الذنب يتمناه كل حين ويذكر حلاوته.

ومن اتهام التوبة الوثوقُ من ذي الجلال أنه قَبِلَ توبته كأنه أُعْطِيَ منشورًا بالأمان.

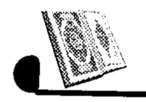
ومن اتهام التوبة جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل خطيئته[1].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠].

وفي موضع آخر من القرآن كان جزاء من تاب وآمن وعمل صالحًا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفرقان: ٧٠].

فهو كرم من الله لمن تمكن أن يقلع عن المعصية فلن يفوته شيء من الثواب ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم.



وبقدر صدق التوبة والندم على الذنب بقدر ما تتبدل السيئات حسنات بقدر ما تتنزل عليك الرحمات.

الجنـــــه:

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾ [مريم: ٦١].

هي جنات الإقامة الدائمة التي آمنوا بها بالغيب، واشتاقوا إليها بالغيب، وعملوا لها بالغيب. فلا يُخلف الله الميعاد، وموعده مفعولًا، وهم آتون هذا الوعد لا شكَّ عندهم: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: ٦٢].

نعم هم كما بين المولى:

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، لا ضجَّة، ولا جدال، ولا كلام، إلا السلام[(١)].

والسلام اسم جامع للخير.. فهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون فسلام على اللسان وسلام في القلوب وسلام في الصدور ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ٦٢].

يقول الرسول ﷺ «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى

---

(١) واللغو: هو الكلام الذي لا فائدة منه.

صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتمْخطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، فِيهَا آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمْ مِنَ اللؤلُوَّةِ، وَرَشْهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِا مِنْ وَرَاءِ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ قَلْبُ رَجُلٍ وَاحِدٌ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»[١].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

تلك الجنة.. وما أدراكم ما الجنة ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وهذه الوراثة هي الحقُّ، رغم عدم الانتساب إلى جيل الأنبياء وورثة الأنبياء للذين صنعوا إيمانهم وصفات وراثة الجنة جاءت في أكثر من آية من القرآن ليتضح معنى التقي المطلوب لهذه الوراثة فبعد أن ذكر صفات المؤمنين قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].



(١) رواه البخاري (٢/ ١٢١٠) (٣١٤٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤).





١٠
عـــودة إلى مكــة

وبعد هذا الحديث الطويل والقصص المشوِّق، وبيان مصير المتِّقين، وحال المؤمنين، والنبي ﷺ يستزيد من جبريل الحديث يسأله عليه الصلاة والسلام: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**»[(١)]. فقال له جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

ينتقل بنا السياق القرآني من ذكر قصص السابقين، وذكر حال من خلفهم من المنكرين والمكذبين، إلى الواقع في مكة حيث المواجهة الجديدة بين نبي من أنبياء الله بل خاتم الأنبياء وبين قومه الذين لم يختلفوا عن أقوام الأنبياء قبل..

ونستشعر القرب الشديد من موقع الأحداث، وكأن الحِوار مستمر نسمعه بين جبريل أمين الوحي الذي يأتي به من السماء، وبين محمد ﷺ أمين الرسالة والتبليغ الذي آنسه ذلك القصص الحق الذي يستمع إليه من جبريل عليه السلام فيستزيد منه؛ فيضع

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٦٠) (٤٤٥٤) والترمذي(٥/ ٣١٦) (٣١٥٨) وأحمد (١/ ٢٣١) (٢٠٤٣).

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

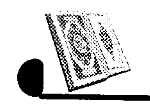
وقد وردت روايات كثيرة حول تأخُّر الوحي عن رسول الله ﷺ وشوقه إليه وعتابه لجبريل وردّ جبريل عليه بهذه الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

والملاحظ أن هذا الدرس في معرفة قدر الله تعالى جاء فاصلًا بين ما مضى من قصص الأولين، وما سيأتي من ملامح تكذيب المعاندين من قريش.. ويتلخّص الدرس في الآتي:

أولًا: إن الملائكة عبيد لله تعالى، لا سلطان لهم إلا بأمر الله.

ثانيًا: إن الله له ما بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك.. فهو المحيط سبحانه وتعالى عِلْمًا وقدرة واقتدارًا.. هذا ليس بالنسبة للملائكة فقط، بل للكون كله.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٥-٨].



وله سبحانه وتعالى الدنيا والآخرة وما بينهما.. فسبحانه له ملكوت كل شيء.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

٣- واضح دور الملائكه في الربط بين الأنبياء والملأ الاعلى في القصص السابقه مع زكريا ويحي ومريم وعيسى...

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

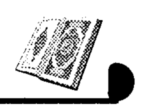
نسيًا: أي لا ينسى شيء، أو لا ينساك أنت بالذات يا محمد، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١- ٣].

وعن سلمان قال: «**الحلال ما أحلَّ الله، والحرام ما حرَّم الله، ما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا**»(١). ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

فهو ربُّ الأفعال والأقدار، وله مقاليد كل شيء: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٢٠) (١٧٢٦)، وابن ماجه (٢/ ١١١٧) (٣٣٦٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩).



وهو مصرِّف الأمور بإحكام وبقدرة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

> ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]

وهو ربُّ المكان والزمان والخلق جميعًا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٤].

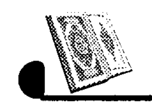
والنتيجة الحتمية لهذا الاعتقاد، والنتيجة الحتمية لهذه المعرفة لله أن نتوجَّه إليه وحده في العبادة: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

والعبادة ليست مجرد الشعائر، وإنما هي كل نشاط وكل حركة، كل خالجة، وكل رنة، وكل اتجاه، كل همسة كل شهوة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهذه مشقَّة عظيمة أن يضبط الإنسان كل هذا في اتجاه واحد هو الله لا سواه.

مشقَّة تحتاج إلى الاصطبار، اصطبار على شهوات النفس، اصطبار على جذب الأرض، اصطبار على نداء الشياطين، اصطبار على ضروريات الحياة: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، ولكن



المُعِين على ذلك كله أن تعلم أنه وحده في الكون الإله وأن غيره وهم لا وجود له، ولا قيمة، ولا اسم.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ليس له نظير، ليس له منافس، فلماذا تتوجَّه إلى سراب؟!!

فالله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

فهلا عرفت ربك؟!

وهكذا ينتهي هذا الدرس الذي سرد على مشركي مكَّة، يذكر القصص السابقة، ويذكر حال وراث الأنبياء، وحال المتقين، ومصير كل واحد، ثم بإعلان الربوبية الحقِّ لله تعالى، ونتيجة هذه الربوبية هي التوجّه إليه في كل حال.

إنحرفات الضمائر:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]

وتلتفت الآيات إلى الاعتقادات الموجودة بين الناس في مكة، فتنسف هذه القيم نسفًا، إنه الواقع الذي تعيشه الدعوة في مهدها وهذا من واجبات الدعاة أن يدركوا الواقع الذي سيتعاملون معه مهما كانت قسوته ودرجة انحرافه فتعرض الآيات حتى نهاية

السورة لأصناف من الانحراف الذي يجب مواجهته:

١- إنكار البعث.

٢- الاستكبار بالمال والولد.

٣- الشرك بالله.

٤- دعوى أن لله ولد:

أولًا: إنكار البعث..

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

وقد تكون هذه المقولة جاءت على لسان أحد المشركين كما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

ولكن الله يجعل هذا القول على لسان الإنسان.. ليبيِّنَ أنها اعتقاد فاسد عند كثير من بني الإنسان، وأنه طريق للبُعْدِ عن عبادة الله.

ويكون الردُّ على هذه الشبهة: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]، ويستدلُّ بالبدء على الانتهاء، فأنت لم تكن شيئًا، والله خلقك من لا شيء، وسوف يُميتُكَ فتصبح لا شيء ويعيدك من لا شيء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [مريم: ٦٧].



ولازلنا نذكر قوله تعالى لزكريا عندما تعجب أن يأتيه الولد وامراته عاقر وقد بلغ من الكبر عتيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] وهو نفس الرد على مريم عندما تعجبت أن يهبها الله غلامًا دون زوج ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] .

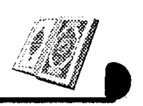
وقد لا نجد بيننا مكذِّب صريح بالبعث . . ولكن حال الإنسان يدلُّ على ذلك، فنسيانه لقاء الجليل يجعله لا يعمل بالتنزيل . . ونتعلَّم أيضًا من الآية كيفية النقاش العقلاني للأمور التي هي مسلمات عندك وينكرها البعض

إذا غضب الرحمن:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]

هذه غضبة إلاهية تبين أن الأمر مع هؤلاء المنكرين يوم القيامة سيكون بشكل آخر.

ورد في الصحيح: يقول الله تعالى: **كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم، ولم يكن له أن يؤذيني، أمَّا تكذيبه**



أيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. أو ليس أول الخلق أهون عليَّ من آخره[١].

وأمَّا أذاه إياي فقوله: أن لي ولد، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] هذا موقف الحشر الرهيب، الموقف الذي لا يَزَرُ أحد والمؤمن والكافر.. الإنسان والشيطان والحيوان.

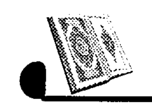
إنه حشر رهيب أن تجد نفسك مع جميع المخلوقات: العناكب والثعالب والجن: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]

محضرون بعنف وقسوة جاثون حول النار على ركبهم، يرون لهبها وفحيحها، وأذرعتها الممدودة التي تخرج منها لتلتفَّ حول الظالمين، وتُلقي بهم في قعر جهنم.

تقول عائشة يا رسول الله أيذكر الحبيب حبيبه يومئذ... قال يا عائشة ثلاث مواقف لا يذكر الحبيب حبيبه عند الميزان وحين تطيش الكتب وعندما يخرج عنق من النار يقول وكلت ثلاث بمن

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٩٠٣) (٤٦٩٠)، والنسائي (٤/ ١١٢) (٢٠٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٥٠) (٨٥٩٥).



لا يؤمن بيوم الحساب وبمن جعل مع الله إلهًا آخر وبكل جبار عنيد، يأخذه من وسط الموقف ويهوى به في قهر جهنم.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٩- ٧٠].

والنزع هو الأخذ بشدة.. من وسط الأشياع والمجتمعين على باطلهم.. والعجيب أن الله تعالى ينزع من وسطهم أشدهم حيث الهول يأخذ بالقلوب، فإن كان ذلك يفعل بالأشداء العتاة، فما بالنا نحن التابعين الصغار.. وهذا النموذج سيطبق على فرعون رأس الطغاة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

والأمر ليس جزافًا ولا خبط عشواء، إنما هو العدل الذي لا يؤثر فيه غضب... ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠] والصلي هو الحرق بالنار... وواضحٌ أنه سيحدث جدال بين أهل النار من يدخلها أولًا، بل سيصل الأمر إلى الاتهامات المتبادلة، يقول الضعفاء: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

فيتبرأ منهم السادة..

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فيحسم الملك سبحانه وتعالى ذلك الجدال بأنه تعالى أعلم بأولويات دخول النار: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠].

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

والمؤمنون هناك يَرِدُون على النار، يقتربون منها، يدنون من هوائها، يشعرون ببعض لفحاتها على البعد. ينادون سلم سلم. . .

كان عبد الله بن رواحة واضعًا رأسه في حجر امرأته، فبكى فبكت، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت.

قال: إني ذكرت قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ [مريم: ٧١]. فلا أدري أَنْجُو منها أم لا.

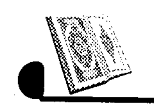
وكان أبو ميسرة يقول: أُخبِرْنا أنا واردوها، ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها. ويبكي.

وكان رجل كثير الهذر، فقال له أخوه: هل أخبرت أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: هل أخبرت أنك صادر عنها؟ قال: لا. فقال: ففيما الضحك؟!! فلم يُرَ ضاحكًا.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

قال رسول الله وهو في بيت حفصة: «**لَا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ**»[1]. قالت حفصة: أليس الله يقول:

(١) رواه مسلم (٤/١٩٤٢) (٢٤٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٥/١٠٣) (٢٦٩).



﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾: فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

النجـــاة:

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم**»(١). وقال ابن مسعود: «ورودهم أي: قيامهم حول النار»، وهناك نجاة للتخفيف من هذا الموقف: «**مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ**»(٢). أي: قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا﴾.

«**مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى مُتَطَوِّعاً لَا يَأْخُذُهُ سُلْطَانٌ لَمْ يَرَ النَّارَ بِعَيْنَيْهِ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ**»(٣).

«**الحمى حظ كل مؤمن من النار**» وقرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾(٤).

والخلاصة كما بيَّن العلماء أن الورود هو المرور عليها، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**الزَّالُّون والزَّالات يومئذٍ كثير، وقد**

---

(١) رواه الدارقطني في العلل (٥/ ٢٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٠١) (١١٩٣)، وأحمد (٢/ ٢٧٦) (٧٧٠٧).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٣٧) (١٥٦٥) وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٥) (٤٠٢).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٦١) (٩٨٤٥).



أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة، دعاؤهم سلم سلم»[1].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢].

يخرجون حسب أعمالهم، حتى لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ويخلد فيها الكافرون.

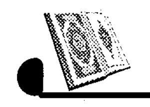
﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

ثانيًا: الاستكبار بالمال والولد:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]

هذا الحوار دار في مكة عندما بدأت الدعوة في الظهور... وكان من الأسباب القوية لإعراض كبراء قريش عن الدعوة.. هذا السؤال: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديا؟ وهذا السؤال زادت حدته وتأثيره عندما أعلن الإسلام عن نفسه أنه دين المساواة.. ويعرضها الملك سبحانه وتعالى هنا ضمن اعتراضات كلها ضمن العقيدة.. وكأن المساواة عقيدة من عقائد الإسلام يجب أن يدافع عنها النبي كما يدافع عن الإيمان بالله واليوم الآخر.

(١) مسند إسحاق بن راهويه (٣/ ٧٤٠) (١٣٤٩).



أي الفريقين خير وأحسن - مجتمع الكفر بترفه وفخامته غالبًا، أم مجتمع الإيمان بفقره وتواضعه غالبًا؟

النضر بن الحارث، وعمرو بن هشام، وهشام بن الوليد بن المغيرة، وهند بنت عقبه أم بلال، وعمار، وخبَّاب، وبركة أم أيمن.

ولقد حكم الله أن يكون الإيمان خاليًا من كل زينة، مجردًا من أي سلطان، معتزًّا بعزة الله دون سواها.

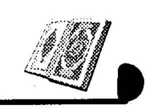
والمنطق الغبيُّ يربط بين أن الدعوة حقٌّ وبين مكانة معتنقيها الدنيوية، إنها إن كانت حقًّا لاتَّبعها الكبار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا من حكمة الله أن يتبع الأنبياء الضعفاء والفقراء حيث يتولد السؤال: أيرضى الله بهوان أتباعه وعلو أعدائه..

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

ومن قبل قال نوح مؤكدًا أن المساواة بين البشر جزء لا ينفصل عن عقيدة التوحيد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩]



بل ويعلنها لهم واضحة جلية أن قيم الإيمان لا تُقاس بقيم الدنيا: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

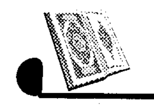
ولقد مرَّ هذا الدرس على رسول الله ﷺ من أخيه نوح، وها هو القرآن يعرض القضية في نطاق اعتراضات المشركين على الإسلام.. ثم يحسم الملك سبحانه وتعالى الموضوع بأمره لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

فأمر الإيمان ليس بأتباعه، إنما هو واضح جلي: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فلذلك قال تعالى هنا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ [يونس: ١٥]، فالآيات بينات، والأمر واضح، فلِمَ تتحدَّثون في موضوع جانبي..

ويصيغ القرآن تساؤلهم المستفز.. كأنهم يقولون لأهل الإيمان نحن نرضى حكمكم أنتم..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].



من منا الأفضل؟ انظروا إلى حالكم، هل نفعكم إيمانكم، هل أغناكم، هل أعطاكم جاهًا وسلطانًا؟

نحن ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾... وجاهًا وسلطانًا.

نحن ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.. وجماعة وحزبًا.

إذن هذا ظن الكافرين.. بل وهذا ما يبدو لكل مراقب، فما الموقف عند الله؟

(أنتم الأعلون):

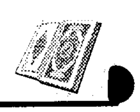
ترد الآيات التالية عل تلك الشبهة كالآتي:

١- انظروا في أحوال الأمم السابقة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

٢- إن من سنن الله مع الكافرين أنه يمدهم.. ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

٣- إن وعد الله بتدمير هؤلاء واقع إما بالعذاب في الدنيا، أو في لقاء الآخرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

٤- إنه في مقابل زيادة الضال ضلالة على ضلالته فإن الله يزيد المؤمن هُدًى على هداه.. والسؤال المقابل - ما هو الأبقى



والأكثر ثوابًا؟ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

التبصير:

هذا هو البيان والآن مع التفصيل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

و«كم» تدل على الكثرة التي لا تُحصى.

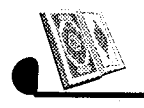
والقرن هو المائة عام والذي يحتوي على جميع الأجيال الجد والأب والابن.. وهو تعبير عن الحشد الزمني والمكاني.

والأثاث هو الفراش الذي تحويه البيوت والقصور والمصانع وغيرها، والذي يَتَّصِفُ بالجمال الملفت للنظر **(ورءيا)**..

وهو تعبير عما وصلت إليه هذه القرون من حضارة شكلية قد يظنون بها أنهم خالدون، كما يقول مشركوا مكة اليوم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

فنجد التعبير القرآني يلتفت عن الجدال حول السؤال إلى المصير وهو الهلاك.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١-١٤].



وهذه دعوة إلى العبرة.. ليس وعدًا لنبيه أن يهلك هؤلاء، فهو موقوف لأمر الله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

الإمهـــال:

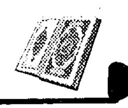
وهذا التهديد بالهلاك لعلهم يرجعون، هو من رحمة الله تعالى أيضًا وإمهاله.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وهذه الخطوة الثانية في الرد على هؤلاء المتكبرين هو الإمهال.. لأن الله تعالى لا يهدي الظالمين، ولا يهدي الكافرين.. فلا بُدَّ أن تكون في القلب بذرة إيمان يُنَمِّيها الله تعالى. أما من أغلق الكفرُ عيونه وقلبَهُ عن الحق، فإن الله يزيده في مرضه: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وشكل الإمداد مفصل في القرآن: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

حتى تصبح الأموال والأولاد الذين يتكبرون بها هي مصدر العذاب.. ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].



الساعة:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

وهي الخطوة الثالثة من الرد على المتكبرين.. أن ما يعدهم الله به ليس شرطًا أن يكون في الدنيا، ولكن قد يُؤَجَّلُ أيضًا إلى قيام الساعة.. وعندها سيعلم الجميع مَنِ الأقوى ومَنِ الأحسن..

ولكنه عِلْمٌ لا يُجدي حيث الحسرة والندامة.. حيث لا يغني مولًى من مولاه شيئًا.

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢].

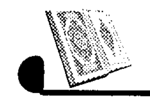
فأين الجند الآن لينصروهم؟ وأين المكانة لتشفع لهم؟

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

وهكذا يلتفت السياق القرآني إلى الفريق الآخر بعد أن عرض عليه صورة هؤلاء المتكبرين ومصيرَهُم وأمثالهم في الدنيا والآخرة..

أما الذين اهتدوا.. فيزيدهم هدًى مقابل إمداد من كان في



الضلالة في ضلالتهم.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

ولكن ماذا عند هؤلاء، وماذا يأخذون مقابل ما عند الفريق الآخر من الأثاث والرءيا؟ إنه شيء آخر وعطاء آخر قد لا يفهمه المتكبرون، وقد لا يفهمه الكافرون.. إنه الباقيات الصالحات.

وقبل أن نقول ما هي هذه الباقيات الصالحات التي هي خير من الأثاث والرءيا والمكانة نجد أن الله تعالى جعلها ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ و﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾.

وعندما تعلم الغاية السعيدة والنهاية المحبوبة فسيهون عليك مشاق الطريق.

فما هي الباقيات الصالحات؟

لقد وردت فيها أقوال كثيرة:

خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فقال: «**أَلَا وَإِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**»[١].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٧) (١٨٣٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٥) (١٩٨٥)، والطبراني في الكبير (٦/ ٥١) (٥٤٨٢).

جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عودًا يابسًا ثم قال: «**إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحطُّ الخطايا كما تحطُّ ورقة هذه الشجرة الريح**».

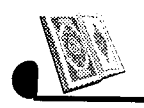
«**خذها يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن.. هنَّ الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة**»[١].

فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأُهَلِّلَنَّ لله، ولأُكَبِّرَنَّ الله، ولأسبحن الله حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

إذًا هي كلمات.. ولكنها ليست كأي كلمات إن أهم ما يميزها أنها عطاء ليس كل من أراد أن يقولها يوفق إليها، ودليلي أنها بين أيدينا ونتكاسل عنها، أننا نعرف فضلها ونغيب عنها في الدوامات التي تأخذنا، إن ذكرك لهذه الكلمات أن تذكر بها الله تعالى لهي دليل على استغراقك في توحيده سبحانه وأن بقية الصالحات في الطريق إليك لأن العلماء فسروا أيضًا الباقيات الصالحات بجميع الأعمال الصالحة فهي التي تبقى.

---

(١) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٥٠).



مصير متكبر:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

وفي النهاية يعرض لنا القرآن حادثة معينة بعد هذا العموم في الرد على المتكبرين.. إنها حادثة لأحد ضعفاء المسلمين أمام أحد المستكبرين من المشركين فما هي الحكاية وكيف يكون رد القرآن عليها هذا ما سنراه في المشهد التالي:

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْناً حدادًا وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاص بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ مَنْه، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ[١].

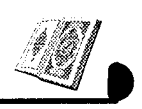
قَالَ فَإِنِّي إِذَا مُتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِى ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْتُكَ[٢]: هكذا ظلم واستهتار وغباء..

وهو نفس المنهج الذي يتبعه الظالمون.. فمثله صاحب الجنتين يُمعن في إغاظة صاحبه وهو يزور جنته ويقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٩٥) (٢١٠٥٥)، (٤٤٥٨)، وأحمد (٥/ ١١١) (٢١١١٢)، وابن حبان (١١/ ٢٤٣) (٤٨٨٥).

(٢) رواه مسلم .



وتبدأ الآية بهذه الكلمة الْمُعَبِّرة ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾.. إنها كلمة تتعجب وتستنكر وتتوعد وتشنع في وقت واحد.. ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾... ثم هذا الذي يظلم عبد الله الضعيف ما له متناقض بشدة إنه ﴿كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ثم يقول: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ من أين؟..

أنت كفرت بآيات الوهاب المعطي.. فمن أين جاءك كل هذا الأمل، وكل هذه الثقة؟ أن تُؤتي المال والولد؟!

ومن الذي سيعطيك وقد أعطيت ظهرك للمعطي؟! ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ هذا العجب والغباء؟!

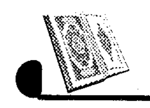
ثم تُمعن الآيات في بيان تفاهة موقف أمثال هذا النموذج العجيب:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؟

هل قرأ في اللوح المحفوظ وعَرَفَ أنه سيؤتي المال والولد رغم ما هو فيه من الكفر والعناد؟!

ومن البَدَهِيَّات أن الرزق غيب لا يستطيع أن يعلمه أحدٌ، فهل هو عنده من المؤهلات ما يجعله يطلع الغيب، ويُصرِّح بهذا التصريح العجيب؟!

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؟!



ونحن نكاد نضحك من موقف هذا المتعالى الذي لا يرى نفسه ومقامه المهان.

ثم يسأله الله هذا السؤال: أنت ذلك المعاند المستهزئ بخلق الله. هل مكانتك بعد ذلك أن تتخذ عند الرحمن عهدًا بأنه سيؤتيك -رغم كل ذلك- المال والولد.

يالَغباءِ الكافرين!!

إن العهد الذي يؤتيه الرحمن لعباده هو عهد الإيمان والطاعة؛ يقول رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُضَيِّعْهَا اسْتِخْفَافاً بِحَقِّهَا، فَلَهُ عَلَيَّ عَهْدٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَمْ يُصَلِّها لِوَقْتِهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، وَضَيَّعَهَا اسْتِخْفَافاً بِحَقِّهَا، فَلَا عَهْدَ لَهُ؛ إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ، وَإِنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لَهُ**»(١).

هذا هو العهد مع المؤمنين.. فإن قصروا فهم تحت المشيئة. أما الكافرون الظالمون، فمن أين يكون لهم العهد؟!

وهنا يُظهر الملكُ سبحانه وتعالى حقيقةَ الأمر؛ فلا هم اطلعوا الغيب.. ولا هم اتخذوا عند الرحمن عهدًا.. إنما الأمر غير

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٤٤) عن كعب بن عُجْرَة.

ذلك تمامًا:

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

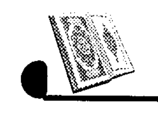
كلا.. كل ما سبق غير صحيح، فهو كاذبٌ مُدَّعٍ.. يستحق العذاب، ولكن لأنه سبحانه وتعالى العدل، فإن كلَّ ما قاله قد كُتِبَ وسُجِّلَ عليه، حتى لا يأتي يوم القيامة يقول: لم يصدر منِّي هذا.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٧٩].

ثم يأتي أمام الخلق في المشهد الرهيب ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وبعدها المصير مخوف.. والخاتمة مرعبة، فإنه ليس عذابًا وينتهي، ولكنه ممدود إلى أجل لا يعلمه إلا الله.

ثم تُنهي الآيات قصة هذا العاتي الظالم بمشهده العجيب يوم القيامة وكان قد ادَّعى أن الله سيؤتيه في هذا اليوم.. فإذا به قد سلب كل ما عنده، وما ادَّعاه، وما قال به: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠].

ونرثه أي: نأخذ منه ونسلبه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].



وها هو وحده متفردًا في المواجهة.. لقد تعاظم في الدنيا أمام عبد ضعيف وقال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا﴾، فها هو اليوم قد سلب منه المال، وقال تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾..

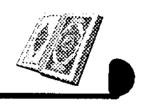
﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وها هو يأتي ﴿فَرْدًا﴾ ليس معه مال ولا ولد..

وبهذا ينزل الستار على دعوى الكافرين بأنهم أصحاب النفوذ والمال والقوة، فكيف يجتمعون في دين واحد مع الضعفاء، وقد ردَّ عليهم القرآن بحجج دامغة، وعرض مصير أحدهم كأنهم يرونه رأيَ العين؟!

ثالثًا: الشرك بالله:

مَرَّ بنا العرض القرآني للواقع الدعوي الذي جاءت رسالة محمد ﷺ لتواجهه.. ورأينا إنكار البعث والاستكبار بالمال والولد..

ثم يعرض علينا القرآن الجانب الثالث لهذا الواقع؛ وهو الشرك بالله.



﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]

هذه صورة ثالثة يجتمع فيها هزل الكافرين مع الأسى على حالهم، إن الله الواحد الأحد المعبود بحق هو الذي يُصوِّرُ لنا هذا الحال.. إن هؤلاء الكافرين اتخذوا من دونه آلهه.. والإله هو المعبود؛ لأنه يستحق ذلك.. لأنه أوجدك من العدم، وأمدَّك بالجود، وتولاك بالتربية.. فهو ربك الذي أسبغ عليك النعم والهبات، وهو إلهك الذي لا يستحق العبادةَ إلا هو..

فكيف تتخذ إلهًا غيره بعد كل هذا؟!

وما المؤهلاتُ التي تجعله إلهًا لك؟!

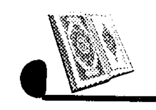
والعجيب أن كل ما اتخذت من إله هو من خلق الله تعالى.. الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والحَجَر، والشجر، فهل هؤلاء هم الذين سيكونون لكم عزًّا؟!

ما العزة في عبادة هؤلاء من دون الله؟

وماذا سيعود عليكم من عبادتهم، والله هو الوهاب؟

ويأتي الردُّ الإلهي في مقاطعَ قصيرةٍ سريعةٍ تردي بهؤلاء المشركين وأفكارهم التافهة:

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].



سبحان الله! سيأتي الذل ممن اتخذتَهُ عزًّا.. يوم يتبرَّأ منك ومن عبادتك إياه..

حتى الملائكة سيسألهم الله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾؟ فتكون إجابتهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وعيسى ابن مريم أيضًا سيسأله الله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١].

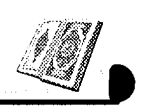
لعب الشياطين:

ثم يُبيِّن الملك سبحانه وتعالى أن هؤلاء المشركين لعبة الشيطان الذي أفقدهم عقولهم وتحكمهم في أنفسهم؛ فأصبح يُحرِّكهم بأقل قوة منه:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]

والأَزُّ هو الهَزُّ.. وذلك بالوسوسة والتسويل، لقد جعل الله الشيطان جزءًا من ابتلائه للإنسان، فهو الذي خلقهم وأرسلهم لمهمة الأَزِّ والنزع، وهم يُؤَدُّون مهمةَ خُلِقُوا من أجلها؛ لأن ادِّعاء الإيمان له ثمن وله اختيار لا بُدَّ أن يمر به الإنسان:

﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ



﴿٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

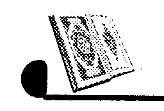
ولأن الله تعالى هو الذي كلف الشيطان، فإنه سبحانه وتعالى هو المستعان لمقاومته؛ ولذلك نبَّهَ أن العلاج من أزِّ ونزغ الشيطان هو الاستعاذة بالله تعالى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ثم في رسالة إلى الداعية ﷺ يُطمئنه ويثبته على طريق الدعوة رغم وجود هؤلاء المشركين المستفزين:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ٨٤ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٤]

فإن الاستعجال من أمراض الدعوة.. والمشرك والكافر والمنافق يستفزون الداعية أن يستعجل.. ولكن الله تعالى العليم الخبير يعلم أن طول نَفَس الداعية في الدعوة وعدم استعجاله من وسائل نجاحه..

فيطمئن الملك نبيه سبحانه وتعالى بنفس ما بيَّنه من قبل؛ وهو الإمهال.. وهذا الإمهال ليس إلى أجل مسمى، إنما له أجل سينتهي عنده: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ نَعُدُّ لهم السيئات والذنوب.. ونَعُدُّ لهم أعمارهم.. ونَعُدُّ لهم ما تبقَّى حتى يأتونا..



﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

نعم.. هذا اليوم ليس يوم الكافرين المشركين فقط، إنما هو يوم الناس جميعًا.. والناس فريقان: المتقون، والمجرمون. أما المتقون، فإنهم مجموعون وفودًا مكرمة إلى الرحمن. نعم.. الرحمن... وما زالت ظلال الرحمة تظلل السورة كلها..

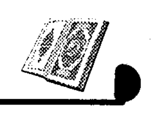
إلى الرحمن... يقول الإمام علي رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نُوق رحالها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن هموا بها سارت، وإن حركوها طارت[1].

أما المجرمون، فهم يساقون من الخلف كالبهائم، كما بين الله تعالى حالهم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. أما الجهة التي يساقون إليها، فهي «جهنم». وكفى باسمها رعبًا.. وتخيلًا للمصير المظلم..

ثم إنهم يساقون إليها (وِرْدًا).. والوارد هو الذي يأتي بئر الماء ليشرب... ولكن عندما يأتي لا يجدها ماءً، إنما هي ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦].

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٦/ ٤٣٢٤)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٦١).



ويزداد التهكم بهذه الفئة الشاردة: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فأين الآن ما اتخذوه من آلهه...؟

أين العز الذي انتظروه؟

ألا يشفعون لهم كما ظنوا؟

لقد أغلقت كل أبواب الرحمة وأعلنها الرحمن لا رجعة فيها:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٥٧]

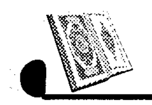
ولاحظ معي... هناك سألهم الله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بأن يؤتيهم يوم القيامة مالًا وولدًا.. واليوم تكون المفاجئة الكبرى... إن هناك عقودًا فعلًا.. ولكن ليس من الآلهة الكاذبة..

وإني لأتخيل هؤلاء وقد شخصت لهم آلهتهم المدعاة يوم القيامة؛ فهرولوا إليها يطلبون الشفاعة.. فاستمعوا إلى من يبكتهم:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

والعهد هو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها كما قال ابن عباس(١)، وقرأها ابن مسعود وقال: إن الله يقول يوم القيامة من

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٢.



كان له عند الله عهدًا فليقم.

فقال أصحابه: فعلمنا ما نقول، قال: قولوا: «**اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تكلني إلى عمل يقربني من الشرِّ ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا في رحمتك، فاجعل لي عندك عهدًا تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد**»(١).

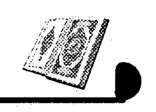
رابعًا: دعوى أن لله ولدًا..

وهذه آخر ما يعرض الملك سبحانه وتعالى من صور الواقع الدعوي الذي تمر به الدعوة في مكة، وهو ادعاء الولد لله تعالى..

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]

ويختم الله تعالى بهذه الفرية وهي المناسبة لبداية السورة حيث قصة عيسى ابن مريم.. لقد ادَّعى المشركون أن الملائكة بنات الله أيضًا، وهو نوع من الشرك بالله موجود في كل

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٢.



الانحرافات العقدية؛ فالنصارى قالوا: عيسى ابن الله. واليهود قالوا: عزير ابن الله، وأصحاب الديانات الأرضية المخترعة كل منهم ادَّعى أن لله ولدًا، فبوذا ابن الله، وآلهة الأولمب الإغريقية أولاد الله، وملوك مصر وفراعنتها أولاد الله.. والله ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١].

فيا لَلكذبِ على الله!!

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩] .

متناهيًا في النكر والفظاعة، ثقيلًا على القلوب المؤمنة، بل ثقيلًا على الواقع والفطرة السليمة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: لا يثقل عليه حفظهما.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٨٩]، ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]..

وفي ظلِّ هذه الغضبة الإلهية يأتي التقرير الواضح للحقيقة الجلية.

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤-٦٥] .



ود الرحمن:

ثم تنزل قطرات الندى على قلوب المؤمنين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: «**يا جبريل: إني أحب فلانًا فأحبه. فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبْول في الأرض، وإذا أبغض الله عبدًا مسح** [ودًا] أي في قلوب المؤمنين»(١).

«**ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم**»(٢).

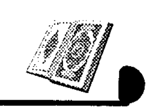
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

لدًّا... ظالمين.

ولدًّا... كافرين.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٠) (٢٦٣٧)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٩) (٦٦٨٥).

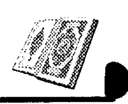
(٢) الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٢٢) (٦٢١٦).



ولدًا . . . مشركين .

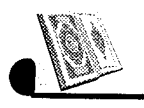
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] .





الفهرس





مؤلفات د/أكـــرم رضا

١- الأسرة المسلمة في العالم المعاصر: (البحث الفائز بجائزة مكتبة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني الوقفية العالمية، وزارة الأوقاف- قطر لعام ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠م)، ثم ترجمته إلى الإنجليزية والفرنسية.

«سلسلة أولادنا»:

١- قلوب بلا خجل

٢- مراهقة بلا أزمة: الجزء الأول «ترويض العاصفة».

٣- مراهقة بلا أزمة: الجزء الثاني «فنون تربوية».

٤- شباب بلا مشاكل: الجزء الأول «رحلة من الداخل».

٥- شباب بلا مشاكل: الجزء الثاني «خصوصيات البنات».

٦- شباب بلا مشاكل: الجزء الثالث «ويسألونني».

«سلسلة إدارة الذات»:

٧- إدارة الذات: «دليل الشباب إلى النجاح».

٨- بلا ندم: «كيف تحل مشكلاتك وتتخذ القرار الفعال».

٩- لقاء الجماهير: «برنامج الحديث الإقناع وفن توصيل المعلومات».

١٠- برنامج تدريب المدربين: «كيف تكون مدربًا مؤثرًا».

١١- متعة النجاح: «حتى نعلم معنى السعادة».

«سلسلة المرأة وإدارة الذات» :

١٢- جددي السفينة : «حتى نعبر الصراط».

١٣- زينة المرأة حسن الخلق : «كيف تجاورين الحبيب ط».

١٤- زينة المرأة حسن الخلق : «حتى تجدي من يشفع لكي».

١٥- درة التاج الثقافة : «كيف تكونين مثقفة فكرًا وعملًا وسلوكًا».

١٦- الحلال الطيب : «حتى يستجاب الدعاء».

«سلسلة بيوتنا وإدارة الذات» :

١٧- أوراق الورد وأشواكه في بيوتنا : «حوارات مع الزوجين».

١٨- بالمعروف : «حتى يعود الدفء العاطفي إلى بيوتنا».

١٩- على أعقاب الزواج : «مهارات الاختيار والخطة».

٢٠- كيف تبنين بيتًا سعيدًا؟ «دور الزوجة».

٢١- بيوتنا في رمضان.

٢٢- بيوت بلا ديون : «كيف تطبقون ميزانية بيوتكم؟».

٢٣- قواعد تكوين البيت المسلم : «أسس البناء وسبل التحصيل».

كتب أخرى :

٢٤- أبو مازن : «حياته وحواراته معه مع مجموعة الأناشيد الكاملة».

٢٥- وذكرهم بأيام الله : «ستة أيام من أيام الله».

٢٦- الطبي النبوي : «دراسة صيدلنية حول العقاقير النبوية».

٢٧- اعمل بنفسك جدول للمذاكرة.

٢٨- الردة : «مراجعات نصية تطبيقية».



بالقرآن.. نجدد الحياة

فهذه قراءة تدبرية في القرآن الكريم أقوم بها بصفتي مسلم مأمور أن أقرأ القرآن بتدبر...

وإني لأضمها لكتبي الموجهه إلى الشباب على طريقة إدارة الذات كنموذج من نماذج التعامل مع الدستور الإلهي الذي أمرنا أن نسترشد به ونقيم عليه حياتنا..

وهي قراءة كما أكرر أكثر من مرة وليست تفسيراً أو تأويلاً للقرآن فإني لست من أهله. ومعنى أنه قراءة أنها عمل بشري يتصف بما يتصف به البشر من الضعف والتقصير والقصور تصنف إلى ذلك حال صاحبها الذي لا يعلمه إلا الله.. فتكون النتيجة هي ملاحقتي المستمرة لكل كلمة من هذا الكتاب بالاستغفار.

ورجائي لكل قارئ وقارئة أن يوافيني بأي ملاحظة يراها سواء بالتأييد أو الاعتراض فإن قراءة القرآن تحتاج التصحيح المستمر فما بالكم بالقراءة التدبرية.



ت وفاكس: 0020233888593
موبايل: 0020101099805
Email:alfa_eg@yahoo.com
info@alfa-publishing.com
www.alfa-publishing.com